



أبو العلاء المعري

شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.

أ = موطنه وأمرته

الى جنوبي حلب تكى بعد ثمانى عشرة ساعة عنها بلدة معتدلة الهواء قديمة عرفها الرومانيون باسم (خالس) ثم لقت بعدهم بذات القصور وهي اليوم قضاء من أعمال حلب يعرف بقضاء معرة النعمان نسبة الى المعرة قصبة ولقطة المعرة مريانية بمعنى المغارة وليست في شيء من التفاسير التي عددها ياقوت الحموي في معجم البلدان ولقد زعم بعض المؤرخين انها سميت بمعرة النعمان نسبة الى النعمان بن بشير الانصاري عامل حمص الذي مر بها فمات له ولد ودفنه فيها فسميت اليه وقد توسيع النعمان سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) . وعندى ان رأي ياقوت في معجمه اقرب الى الصحة وهو انها نسبت الى احد اجداد المعري وهو النعمان الملقب بالساطع ابن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمه بن تميم الله وهو تنوخ بن اسد بن ديرة بن تغلب بن حلوان بن عمرات بن الحاف ابن قضاة .

فتنوخ احدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بهراء وتنوخ وتغلب اجتمعت هذه القبائل مع غيرها في البحرين وتحالفوا على التناصر واقاموا هناك قسماً ونوخاً وتنوخ بمعنى الاقامة فتكون تنوخ حياً من بني قضاة من عرب اليمن (وقيل من الازد) خرجوا من مدينة مأرب الى البحرين عند سيل العرم^(١) ثم تفرقوا بين نواحي العراق والشام ونزل منهم نعمان زعيم قبيلته واميرها بالمعرة فسببت اليه وهو اوجه الاقوال وامثلها

(١) راجع كتابي دواني التطوف صفحة ٦٢

فمرة النعمان كانت حصينة منيعة فتحها المسلمون في صدر الاسلام ثم استولى عليها الافرنج الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) واعادها المسلمون الى ايديهم سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) وزارها ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما من السياح وقالوا انها كانت لعهدهما من اخصب بلاد الله واكثرها رزاقاً وبساتينها ممتدة الى مسافة يومين وفيها الزيتون والتين والفسنجان وانواع الفواكه .

ولاشأن لفستقها اليوم ولكن فيها الزيتون والتين والزبيب والعسل وانواع الحبوب والقطن وفيها صناعة النسيج والدباغة . وتوجد قرى كثيرة باسمها منها معرة مصرين قرب حلب ومعرة باش من قضاء التبك في جبل القلون ومعرة حميدانيا من اعمال دومة وغيرها . والى المعرة ينسب كثير من العلماء اشهرهم ابو العلاء هذا وكذلك كانت موطن امر مشهورة مثل الامراء الارسلانيين التنوخيين في لبنان وآل الجندي في حمص وغيرهم

وقد نشأ من التنوخيين في معرة النعمان سليمان بن محمد بن سليمان من سلالة النعمان ابن عدي المنتهي نسب الى الحاف بن قضاة التنوخي الشهير وهو جد المعري لاييه كان قاضياً في بلدته ومن العلماء الاعلام في وقته وترعرع ولده عبدالله والد المعري على الادب وكان بالعلم وتزوج امرأة من آل سبيكة مواطنيه الذين عرفوا بأدبهم وخدم الادب والمعارف الى ان رزق ولده ابا العلاء هذا فكان صفوة هذا البيت وخلاصة ذكائه ومخيض زبدة آدابه

٢ = نشأته

ولد ابو العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان التنوخي في معرة النعمان في بيت عرف بالادب والفضل ومن والدين من سلالة العلماء يوم الجمعة في ٣ ربيع الاول سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) وما انفتحت عيناه لنور العالم ومشاهدة جمال الطبيعة حتى مني بالجدرى في اول سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) فأطفا نورهما وردته الى قلبه فتوقد ذكاه وقد ارتجل شعرأما عيَّره بذلك عبدالله الخوارزمي وهو قوله :

قالوا العمى منظرٌ قبيحٌ قلت بفقدى لكم يهون

والله ما في الوجود شيءٌ تأسى على فقدهِ العيون

وكثيراً ما كان يقول احمد الله على العمى كما يحمدّه غيره على البصر . ولقد كانت له اسوة بكثير من كبار الشعراء والعلماء الذين أصيبوا بالعمى مثل هويمروس اليوناني

وبشار بن برد العربي وغيرها والذي يظهر من شاهده انه كان في اول امره قد غشي
بني حذقثيه بياض وذهبت اليسرى جملة فكانت احدى عينيه بارزة والاخرى غائرة
جداً وذلك بخلاف ماذهب اليه بعضهم من انه كان أكم . وكان يقول : لأعرف
من الالوان الا الاحمر لانني ألبست في الجدرى ثوباً معصراً . وكانت في وجهه ندوب
الجدرى وهو يخيف الجسم عصبي المزاج حاذق الذهن قوي الحافظة

قرأ النحو واللغة على ابيه ثم رحل الى حلب وقرأ على محمد بن عبد الله بن السعد
النحوي فتمكن من آداب اللغة وطالع كثيراً من المؤلفات لوفرة المكاتب في حلب وقتها
في بلدته ونظم الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة ولم يتكسب به بل نفعه شارحاً فيه
اغراض نفسه ومعبراً عن شواعره وواصفاً بحجائب الكون ولاسيا الافلاك . ومفسراً
غرائب الاجتماع وحاضاً على الزهد والاعتزال . ومعناً في فلسفة الوجود . ومتشككاً من
من مشاورة الايام ومساورة المصائب . وعلى الجملة فانه ابلغ شاعر قام في الاسلام ذاهباً
في شعره مذهب الفلسفة وحرية الفكر والنظر الى الكون بعين العقل وكان ولماً بمطالعة
المتنبي وتحدي افكاره فنظم على مثوله غير متقيد بالصناعة اللغوية .

واقفن العالم ابن عشرين سنة فصار مرجع الادباء ومحط رجال البلاء فنخرج عليه
كثير من علماء عصره من اشهرهم ابو القاسم علي بن الحسن التنوخي . وابوزكرياء الخطيب
الشبريزي شارح الحماسة

وقد رحل في تفقد المكاتب والتوسع بالمعارف الى طرابلس الشام المشهورة بمكتبتها
العظيمة اذ ذاك وسار الى اللاذقية فنزل ديراً فيها وسمع من احد الرهبان بعض العلوم
واطلع على مذهبي اليهود والمسيحيين وكذلك قصد دمشق وحلب وبنداد وغيرها
وكان يرتزق من وقف يحصل منه ثلاثين درهماً^(١) في العام ينفق نصفها على من يخدمه

(١) «المقتبس» سألنا صديقنا احمد بك تيمور من علماء القاهرة عن القدر الذي
كان يرزقه المعري فكتب اليانا مانصه

راجعت رسائل ابي العلاء الى داعي الدعاء وظفرت بالفترة التي وعدتكم بها فكتبتها
لكم على علامتها وهي (ومما حثني على ترك الحيوان ان الذي لي في السنة نيف وعشرون
ديناراً اذا اخذ خادمي بعض مايجب بقي لي ما لا يعجب فانتصرت على فول وبلبن
وما لا يعذب على الالسن فلما الآن فاذا صار الى من يخدمني كبير عندي وعنده هين
فما حثني الا اليسير المنعين ولست اريد في رزقي زيادة ولا اوثر لسقي عيادة والسلام)

فعورض في رزقه فذهب الى بغداد ، متظلاً بمن عارضه سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ثم عاد اليها ثانية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) واقام فيها سنة وسبعة اشهر فتفقد مكانها وتعرف بعلمائها ودرس عليه كثير منهم قال ابو القاسم التنوخي : لما ورد الميري ببغداد قرأت عليه شعره وذكر انه دخل عليه وهو في بغداد علي بن عيسى الربيعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو فقال له الربيعي : ليصعد الاصطبل فخرج مغضباً ولم يعد اليه . و يروى انه دخل يوماً مجلس المرتضى فثر بانسان فقال له : من هذا الكلب فقال الميري : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً وله اخبار كثيرة لا محل لاستيفائها ومن اشعاره في غربته يحن الى وطنه قوله :

فيا بريق ليس الكرخ داري وانما رماني اليها الدهر منذ ليل
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
وقوله :

ياما دجلة ما اراك تلهذي شوقاً كما معرفة النعمان
وعاد ابو العلا . من بغداد الى المعرة سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ولزم بيته وشرع في التصنيف والتدريس فتقاطر اليه الادباء من كل صوب مقتبسين من آثاره وكتبه العلماء والوزراء واهل الاقدار فانتقطع الى خدمة الآداب وسمى نفسه رهبن المحبين للزوم بيته ولقهاب عينيه كما صرح في ذلك بقوله :

اراني في الثلاثة من سجنوني فلا تسأل عن الخبر النيث
لفقدت ناظرية ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخيث
وكان يلعب الشطرنج والرد (الطاولة) . ويملي على بضع عشرة محبرة سيف فنون
من العلم وولع بالعلوم الرياضية واتفق بها وله كثير من الايات الرياضية مثل قوله :
طرق العلى مجهولة فكأنها صم العوائد . لها أجدار
والعقل أنذرنا بما هو كائن في الدهر ثم تشعب الانذار
وعلى الجلة فان الميري كان غزير الفضل وافر الادب عالماً باللغة ضليعاً من آدابها
حسن الشعر جزل الكلام قوي الذاكرة شديد الذكاء

٣ = حافظته ونواذره ووفاته

اشتهر ابو العلا بقوة الحافظة اشتهاراً عظيماً فاق فيه بديع الزمان الهمذاني وغيره

وربما زاده حفظاً العمى فإنه يجمع الذهن ويقوي الخيلة . ومما يروى عنه انه جرس حساب طويل بين رجلين في مكان تشرف عليه غرفته فسمع الحساب وحفظه . ثم ضاعت الاوراق بعد ايام فأملأها عليهما ووجدت الاوراق بعد ذلك فكانت طبق إملائه .

وأعجب من هذا انه كان يوماً عند يهودي فأتاه يهودي آخر واستودعه صرة . ثم جاء يطلبها بعد سنة فانكرها فرافعه الى القاضي ولم يكن بينهما شهود الا المعري فاستقدمه القاضي وسأله . فقال : انني رجل اعمى لم ابصر ما كان بينهما . ولكنني سمعت كلاماً بالعبرانية اذكر لفظه ولا اعرف معناه . فدعا القاضي يهودياً خالي الذهن من القصة واعاد عليه الشيخ ذلك الكلام فاذا هو يؤذن بصحة الدعوى وأنشده مرة ابونصر المنازي قوله :

وقانا لفحة الرمضاء واد	سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً	الذي من المدامة للنديم
يصد الشمس اني واجهتها	فيحبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى	تلمس جانب العقيد التنظيم

فقال له ابو العلاء : انت اشعر من بالشام . وطويت الايام على قوله هذا فلما رحل الى بغداد انشده المنازي فيها :

لقد عرض الحمام لنا بسجع	اذا أصنى له ركب تلاحي
ثجبي قلب الخلي فقبل غنى	وبرح بالشجي فقبل نأحا
وكم للشوق في احشاء صب	اذا اندملت اجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى	وسكران الفؤاد وان تصاحي
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة	كأحدق المهبي مرضى صحاحا

فقال له ابو العلاء . ومن بالعراق عطفاً على قوله قبلاً (انت اشعر من بالشام) الى غير ذلك وكان يقصده كثير من العلماء للتعارف به ومن نزل بالمرّة القاضي عبد الوهاب البغدادي فدحه المعري (راجع ابن خلكان ١ : ٤٣١)

ومن نوادره ان الوزيرا بالفضل التميمي الدارمي البغدادي اجتمع بابي العلاء هذا في بلدته المرة لما بعثه القائم بامر الله العباسي من بغداد رسولا الى صاحب افر بنية

المعز بن باديس وانشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب فقبل عينيه وقال لله
أنت من ناظم
ولقي يوماً غلاماً فسأله عن الطريق فدلّه • فسأله الغلام عن اسمه فعرفه به فقال له
أأنت القائل :

واني وان كنت الاخير زمانه لا ت بما لم تسطعه الا وائل

قال : نعم • قال : ان الأوائل وضعوا ٢٩ حرفاً للهجاء فهل لك ان تزيد عليها حرفاً
فسكت وقال لرفيقه : ان هذا الغلام لا يعيش لحدة ذهبه وهكذا كان
وبقي اليك الأدب منقطعاً الى التدريس حتى مرض ثلاثة ايام ومات سنة في الرابع
منها ولم يكن عنده غير بني عمه فقال لهم في اليوم الثالث من مرضه : اكتبوا عني • فتناولوا
الدوي والاقلام فأملئ عليهم غير الصواب فقال القاضي ابو محمد عبدالله التنوخي :
احسن الله عزاءكم في الشيخ فانه ميت • فمات يوم الجمعة ثالث ربيع الاول سنة ٤٤٩ هـ
(١٠٥٨ م) بالمرّة • وفي طبقات ابن الانباري انه توفى سنة ٤٩٩ • وهو خطأ •
وقبره في ساحة من دور اهله وعلى الساحة باب صغير قديم وهو مهمل وقد اوصى ان
يكتب على قبره •

هذا جنازه ابي علي (م) وما جئيت على احد

والمشهور انه مكتوب على قبره :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة مكنونة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيره منه الى الصدف
وقري على قبره سبعون مرثية ورثاه نحو ١٨٠ شاعراً

٤ = اخلاقه ومعتقده

كان المعري حاد الذهن عصبي المزاج قضاني خلقاً في آخر ايامه لان العبي يورث
الضجر وكثرت مصائبه فاختار العزلة واكثر الشكوى وسوء ظنه بالناس بدليل قوله :

من عاش غير مداج من بعائره اساء عشرة اصحاب واخذان
كم صاحب يتنى لو نعت له وان تشكيت راعاني وفداني
وقوله : توحد فان الله ربك واحد ولا ترغبن في عشرة الرؤساء
يقبل الاذى والعيب في ساحة الفتى وان هو اكدى قلة الجلساء

وكان حر الضمير تدل سريره على ظاهره ولذلك قال :
 وأردقوني ان أكون مدلساً هيهات غيري أثر التدليس
 وربما تظاهر بما ليس من خلقه تلبية لقوانين المعاصرة كقوله :
 ولما رأيت الجبل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظن اني جاهل
 فواغجابكم يدعي الفضل ناقص ووا اسفا كم يظبر النقص فاضل
 وكان متواضعاً يمقت الكبرياء فلذلك قال :

دعيت ابا العلاء وذلك حين وكنت الصحيح ابو النزول
 وبقي نحو ٤٥ سنة منقطعاً عن اكل اللحوم والبيض والبن مقتصر على المأكـ
 الثباتية لانه كان يذهب مذهب من تقدمه من الفلاسفة الذين لا يعذبون الحيوانات
 بالذبح وقال ابن الانباري : انه كان برهمنياً ولذلك لما وصف له فروج وهو مريض لم
 يأكله بل خاطبه بقوله : استضعفوك فوصفوك . والى ذلك اشار تلميذه ابو الحسن
 علي بن همام في مريثته له بقوله :

ان كنت لم ترق السماء زهاده فلقد أرتت اليوم من عيني دما
 وكان يذهب مذهب الهند أيضاً في احراق جثة الميت كما جرى لسبنسروكوخ في
 عصرنا بدليل قوله :

حرق الهند من يموت فلاناً (م) روه في روحة ولا تبك
 واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً وسواك لمنكر ومنكر
 وقوله :

اذا حرق الهندية بالنار نفسها فلم يبق غض للتراب ولا عظم
 قبل هو خاش من تكبر ومنكر وضغطة قبر لا يقوم لها نظم
 ومن قواعده السياسية التي يصدر بها عطاء ساستنا في هذه الايام قوله :
 يقول لك العقل الذي بين الهدى اذا انت لم تدراً عدواً فداره
 فقبل يد الجاني الذي لست واصلاً الى قطعها وانظر سقوط جداره
 ومن مذهبه الشورى بدليل قوله :

مُلِّءَ المقام فكهم اعاشر أمة أمرت بغير صلاحها امراؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها نعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ومنه كرهه للمدح ولذلك قال :

إذا اتيتني على المرء يوماً بخير ليس في فذاك هاجي
وحقي أن أساء بما افتراه فلو لم من غريزي ابتهاجي
ومن مبادئه التثبت عند حلول النوائب كما قال :

غير محمد في ملتي واعتقادي نوح بالك ولا ترم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قد س بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحماة أم غنت على فرع غصنها مباد
وذهب مذهب القائلين أن وجود الولد جنابة فلم يتزوج بدليل ما أوصى أن يكتب
على قبره وبدليل أقوال له كثيرة منها :

على الولد يجني والد ولو أنهم ولادة على أمصارهم خطباء
وربما كان متردداً في البعث والمعاد والخلود ولكن اعتقاده بها أكثر من إنكاره لها
ومن قوله :

أيها الملحد لاتعصي النبي فلقصد صح قياس واستمر
أن تعد في الجسم يوماً روحه فهو كالربع خلا ثم عمر
ولذلك ألف بعضهم كتاباً في الدفاع عنه سماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) وألف
كمال الدين بن العديم كتاب (دفع التجري عن المعري) وكتب مقالات كثيرة في
تبرئته مما نسب إليه من الزندقة

٥ = شعره

يكفي في وصف شعر المعري أن يقال في ناظمه أنه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة
وقد تصرف فيه تصرفاً غريباً ومرح خياله في العوالم العلوية والسفلية فمثلها أحسن
تمثيل وحرص الناس على شعره فجمع في ثلاثة دواوين (لزوم مالا يلزم) (وسقط
الزند) (وضوه السقط) وقد قلت فيها مورباً

ومبذرق نظر اللقيفة جاءني والنار قربي بالثقباب يضرم
مذقال هذا ضوه سقط الزند قات له أراه لزوم مالا يلزم
ومنها انتخب الآن ما يدل على مسرح خيال المعري وحسن وصفه ودقة فكره وقوة
بصيرته فمن أقواله يصف السهر والليل من قصيدة :

يأت عرس النوم من عيني محالة وبات كوري على الوجناء مشدودا

كَأَنَّ جَفَنِي سَقَطَا نَافِرَ فَرْعٍ
ظَنَّ الدَّجَى فُظْلَةَ الْإِظْفَارِ كَاسِرَةً
تَنَاعَسَ الْبَرْقُ أَيَّ لَا اسْتَطِيعَ مَرَى
كَأَنَّهُ غَارَ مِنَّا أَنْ نَصَاحِبَهُ
مَنْ يَخْبِرُ اللَّيْلَ إِذْ جَنَّتْ حُنَادُ سَهْمِهِ
أَفَنِي أُرَاحَ لِأَصْوَاتِ الْخِدَاةِ بِهِ
كَأَنَّنِي غُرُوبَ مَلُؤَهَا تَعَبٌ
وَمِنْ حِمَاسِيَّاتِهِ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

يَهْلُلُونَ طَلَاقَةً وَكُلُومَهُمْ
لَا يَعْرِفُونَ سِوَى التَّقَدُّمِ آسِيَا
مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَعَرُّ بِأَسْمِهِ
يَذْكُرِي تَلَهَّبَ ذَهَبُهُ أَوْقَاتِهِ
وَضَجِيجَ طِفْلِهِمُ الْحَسَامِ وَإِنْ ثَوَى
فَكَأَنَّهُمْ يَرْجُونَ لِقَا رَبِّهِمْ
أَنَا مَنْ أَقَامَ الْحَرْفَ وَهِيَ كَأَنَّهَا

وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى فِي الْغَنَى وَالْفَقْرِ :

وَأَنْ الْغَنَى وَالْفَقْرُ فِي مَذْهَبِ النَّبِيِّ
وَمَا نَلْتَ مَا لَا قُطْ أَلَا وَمَا لِي
لَكَ الْخَيْرُ قَدْ انْفَذْتَ مَا هُوَ الْمُبَسَّى
وَلَوْ أَنَّهُ أَضَاعَ أَضَاعَ مِثْلَهُ
وَاهْوَتْ بِهِ فِي رَاحَةِ أَرِيحِيَّةٍ
فَمَنِّي تَقْصِيرٍ وَمَنْكَ تَفْضُلٍ
فَلَوْ كُنْتُ شَعْرًا كُنْتُ أَحْسَنَ مَنْشَدٍ

وَقَالَ إِضْرًا مِنْ قَصِيدَةٍ أُخْرَى :

تَقُولُ ظُلُمَاءُ الْحَزْمِ وَالْذَمْعِ نَازِلُ
لَقَدْ حَرَمْتَنَا أَثْقَلَ الْحَلِيِّ أَخْتَنَا
فَإِنْ صَلَحَتْ لِلنَّازِلِمْ دُمُوعُنَا

جهلتن أن الولوء الذوب عندنا
ولو كان حقاً ماكننننن لاغثدت
وقال في نار القرى :

الموقدي نار القرى الآصال والا
حمرء ساطعة الذوائب في الدجى
وقال في خلاء الفكر للنظم والنثر :

ولولا ما تكلفنا الليالي
ولكن القريض له مغان
وقال في التوجيه البديعي :

فدونكم خفض الحياة فلقما
وقال أيضاً :

حروف سرى جاءت لمعنى اردء
وقال : ولو جرت البهاة في طريق ال
وقال : فصرفني فغيرني زماني
وقال من قصيدة :

ولملا تلحق الاحوال فيه
اذا سئموا الرحيل فكل غر
كان جفونه عقدت برضوى
لو ان حصى المناخ مدى حداد
وجاز الي ابرادى مجير
برد معاطس الفتيات سفعاً
اذا الحرباء اظهر دين كسرى
واذنت الجنادب في ضحاها
وقال : وكم لك من اب وسم الليالي
مضى وتعرف الاعلام فيه
وقال : لفظ كان معاني السكر تسكنه

(١) مغاص لولوء في البحر الاحمر

فرتب النظم ترتيب الحلي نكلى
الحجل^(١) للرجل والتاج المنيف لما
فان توافق في معنى بنو زمن
قد يبعد الشيء من شيء يشابهه
وقال : ارى المجد سيفاً والقربض نجاده
وخير حمالات السيوف حمالة
وقال : كأن كل جواب انت ذاكره
وقال : وكلامك المرأة تصدق في الذي
وقال : فيا قبر واه من تراك ليثاً
لا طابت أطباق الحارة فاحتفظ
وقال : وليلة سرت فيها وابن منيتها
كأنما هي اذ لاحت كوكبا كبا
كأنما السر قد قصت قوادمه
والبدر يحث نحو الترب أينقه
ومنهل ترد الجوزاه غمره
ورده ونجوم الليل وانية
وقال : وأرى ابا الخطاب نال من الحجي
لا يطلبن كلامه متشبه
أثنى وخاف من ارتحال ثنائه
كلم كنه نظم العقد يحسن تحته
قد شوق شوقاً الى نغماته
والنخل ماعكفت عليه طيوره
ردت لطائفه وحدة ذهنه
والنخل يجني المرء من نور الرين
وقال ملفزاً في الابر
سعت ذات سم في قيمه في غادرت

به اثرأ والله يشني من السم

كست قيصرًا ثوب الجلال وتبعًا وكسرى وعادت وهي عارية الجسم
وقال وقد أبدع في تشبيه الليل والبرق :

كما أغضى الفنى ليدوق غمضًا فصادف جفنه جفنا قريحا
إذا ما احتاج احمر مستطبرا حسبت الليل زنجيا جريحا

وقال وقد أبدع :

باسعد اخبية الذين تحملوا لما ركبت دعيت سعد المركب
غادرني كبنت نعش ثابكا وتركت قلبي مثل قلب العقرب
وقال : لانطلمن بألة لك حاجة قلم البلوغ بغير حظ مغزل
سكن السماء كان السماء كلاهما هذا له ربح وذلك اعزل
وقال : ولا تجلس الى اهل الدنيا فان خلائق السفهاء تعدي

وقال يصف انعكاس صورة السماء ونجومها في مرآة الماء

فأطمعن في أشباههن سواقطًا على الماء حتى كدن بلفظن باليد
فدت الى مثل السماء رقابها وعبت قليلا بين نسر وفرقد
وقال : أطرق كأنك في الدنيا بلا نظر واسمت كأنك مخلوق بغير ثم
وان هممت بين فاتخذ لهما^(١) مضاعفات لتبني اللفظ باللفظ
وقال في ذم الدنيا من آيات :

وقد نطقت باصناف العنات لنا وأنت فيما يظن التوم خرساء
يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيها فهل للسفن إرساء
إذا تعظفت يوما كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوماء
وقال : ان الاعلاء ان كانوا ذوي رشد بما يعانون من داء أطباء
وما شفاك من الاشياء تطلبها الا الأطباء لو تلقى الأطباء
نفر من شرب كاس وهي تتبعنا كأننا لمناياتنا أحباء

وقال يصف الشباب : ان الشبية نار ان اردت بها أمرا فبادره ان الدهر مطفئها
وقال : اذا فعل الفنى ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء
وقال في النساء :

علمهن الغزل والتسج والرد ن وخلوا ككتابة وقراءة

(١) اللغم بالغاء اللقام وهو ما على طرف الأنف من الذناب

فصلاة الفتى بالحمد والاخلاص
تهتك الستر بالجلوس أمام الستر
وقال في ادب الاخلاق :

اذا صاحبت في ابام بوئس
ومن يعدم اخوه على غناه
ومن جعل السخاء لاقربيه
وقال :

القلب كالماء والاهواء طافية
منه تمت ^(١) وبأقي ماغيرها
والقول كالخلق من مهي ومن حسن
وقال :

بنافي ابن آدم حال الفصول
تغير حناؤه شبيه
وقال : ان تستقيم امور الناس في عصر
ولا يقوم على حق بنو زمن
وقال : يغدو على خله الانسان يظلمه
وقال : تقادم عمر الدهر حتى كأنما
وقال في المنام :

وانك ان اهديت لي عيب واحد
وقال في الرباء :

والخل كلاما يدي لي ضمائره
وقال في فساد الناس :

عرفتكم بني حواء قدما
وما فيكم على الاحسان جاز
فكلكم أخو ضغن مكور
ولامنكم على النعمي شكور

(١) ظهرت (٢) ادركت ونضجت (٣) اي اثما ونحوه (٤) وهو بمعنى قول الآخر

يا من يدلّس بالخضاب مشيه
هب يا سمين الشيب عاد بنفسجاً
ان المدلس لا يزال مريباً
أيعود عرجون القوام قضيباً

وقال: صدف الطيب عن الطعا
كل باطيب ولا خلا
وقال: مثل الفتى عند الغرب والنوى
ان صادفت ارضا أرتك خمودها
وقال: وان افتتاع النفس من احسن الغنى
وقال: وما الوقت الا طائر يأخذ المدى
رأتك البرايا ظالماً يأتين آدم
وقال: اضرب وليدك تأديباً على رشد
فرب شقى برأس جر منفعة
وقال: النفس عند فراقها جثائها
كحماة صيدت فذنت جبيدها
ولقد نسيه بعضهم الى الكفر لقوله:

ضحكنا وكان الضحك مناسفاة
تخططنا الايام حتى كأننا
ولكنه قال ايضاً في محل آخر:

خلق الناس للمعاد فضلت
انما يتقلون من دار اعمال
وقال ايضاً:

فاني وجدت النفس تبدي ندامة
وان صدئت ارواحنا في جـسـومنا
وقد لوم في قوله ايضاً:

ناه التصارى والخيفة ما اعتدت
قسم الورى قسمين هذا عاقل
والمرجح انه كان متردداً في مذهبه وربما كان اقراره بالدين في اخريات ايامه كيف
لا وهو القائل:

عجبي للطيب بلحد في الخالق
ولقد علم المتبحر ما يو

م وقال ما كله يضر
ص من الردى فلان لغر
مثل الشرارة ان تفارق نارها
أو وافقت اكلاً أرتك منارها
كما ان سوء الحرص من اتج الفقر
فبادره اذ كل النهى سيفه بداره
وبس الفتى من جار عند اقتداره
ولا ثقل هو طفل غير محتلم
وقس على شق رأس السهم والقلم
محزونة لدروس ربع عامر
اسفاً لتنظر حال وكر دامر

وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
زجاج ولكن لا يعاد لنا مسبك

امة يحسبونهم للنفاد
الى دار شقوة او رشاد

على ما جنته حين يحضرها الثقل
فيوشك يوماً ان يعاودها الصقل

ويهود حيرى والجوس مضلله
لادين فيه ودين لاعقل له

من بعد درسه التشريحا
جب للدين ان يكون صريحا

رب روح كطائر القفص المسجون ترجو بموتها التسريحاً
ومن ذلك قوله :

أذكر الهك ان هبت من الكرى واذا هممت لطبعة ورقاد
واحذر بحيثك في الحساب بزائف فالله ربك انقد النقاد
تغشى جهنم دعة من نائب فتبوح^(١) وهي شديدة الابتعاد
وقوله : ازول وليس في الخلاق شك فلا تبكوا علي ولا تبكوا
وقوله : لا يباأسن من الثواب مراقب لله في الايراد والاصدار
فترى بدائع انبات متجسداً ان الجزاء بغير هذبة العار

وشعره كله على هذا النمط من حرية الفكر والشكوى وله من القصائد الفخرية المشهورة وغيرها ما يجتري^٢ عن ذكره الآن ومن نوادر قصائده ما نشرته مجلة المقتبس (٩٧:٤٠٦٦) وعلى الجملة فان المري دقيق التصور حتى يمثل لك أحياناً أموراً لا يستطيع تمثيلها البصير وهالك الآن من فلكياته ما يبدل على سمو مخيلته فمن قوله في الفجر :

كأن سنا الفجرين لما تواليا دم الاخوين زعفران وايدع
افاض على تاليها الصبح ماء فغير من اشراق احمر مشبع
وقوله : كأن الليل حاربها ففیه هلال مثلاً اعطف السنان
ومن ام النجوم عليه درع يحاذر ان يمزقها الطعان
وقد بسطت الى الغرب الثريا يداً غلقت بائملها الزهات
كأن يمينها سرقفتك شيئاً ومتطوع على السرق البنات
وقوله يفرن على الليل اذ كل غارة يكون لها عند الصباح توالي
ولاح هلال مثل نون اجادها بجاري التضار الكاتب ابن هلال

ولقد اعتنى كثير من الغربيين بجمع اشعاره وترجمتها الى لغاتهم مثل كارليل (Carlyle) المستشرق الانكليزي استاذ العربية في جامعة كمبرج في اواخر القرن الثامن عشر فانه ترجم بعض ابيات باللاتينية والانكليزية . وهكذا فعل المستشرق النمساوي فون كزيمر (Von Kzemer) فانه نشر مقالات كثيرة في (المجلة الجرمانية الآسيوية) عن ابي العلاء وافكاره وشعره نظماً سنة ١٨٧٧م ثم الف كتاباً

بعنوان (اشعار أبي العلاء المعري الفلسفية) طبع في فينا سنة ١٨٨٨ نقل فيه ثراً
أكثر من مائتي بيت من شعر المعري . ثم ترجم رباعياته بالانكليزية نظماً صديقي أمين
افندي الريحاني اللبناني بكتاب انتخبه من دواوينه الثلاثة وطبع في نيويورك سنة
١٩٠٣ في ٤٤ صفحة صدره بمقدمة بحث فيها عن أبي العلاء وسيرته ومن رأيه ان عمر
الخيّام الشاعر الفارسي قد تحداها وها متعاصران . واختار موسى افندي يكييف من
افاضل قازان (روسيا) منتخبات من لزوميات المعري ونقلها الى التركية في نحو مائتي
صفحة مطبوعة في اورنبورغ سنة ١٩٠٨ م . واعتنى كثير من القدماء بدواوينه فان
عبد الله بن السيد البطلبومي النحوي الاندلسي شرح سقط الزند شرحاً استوفى فيه
المقاصد وهو اوجود من شرح أبي العلاء صاحب الديوان المسحوق بسقوط . وكذلك
البريزي خريج المعري شرح سقط الزند .

وكان حسين بن الجزري شاعر بني سيفاً امراء طرابلس الشام مغرمًا بالمعري فكشف
على ديوانه لزوم مالا يلزم

ان كنت متخذاً لجرحك مرهاً فكتاب رب العالمين المرم
او كنت مصطحباً حياً سالكاً سبل الهدى فلزوم مالا يلزم

ودواوينه الثلاثة مطبوعة في مصر وسورية . وقد قابلت مجلة المقتطف الغراء
بينه وبين ملثون الشاعر الانكليزي السير صاحب (الفردوس الضائع) راجع السنة
العاشرة صفحة ٤٤٩ ومجلة الهلال انرا ترجمته في السنة الخامسة عشرة صفحة ١٩٥ .
وترجمه رضاء الدين افندي بن نحر الدين من علماء اورنبورغ في روسية بالتركية القرية
في ٧٢ صفحة طبعت في المدينة المذكورة سنة ١٩٠٨ . وغيرهم

ولقد كان المعري والمنيبي وابن هاني ممن اختطوا خطه جديدة في الشعر لم ترق
في عيون المحافظين على الاسلوب القديم فلذلك لم يسمحوا للمترشحين للنظم ان يتعدوا
كما في مقدمة ابن خلدون وغيرها فالمعري شبه بفكتور هيكو عند الافرنسيين وكذلك
صنوا

٦ = نشره وكتبه

اهم ما وصل اليانا من نثر المعري رسائله التي نشرت في بيروت سنة ١٨٩٤ . مشروحة
بقلم الاستاذ شاهين عطية اللبناني في ٣٤٠ صفحة . وفيها تكلف غريب وإغراب في
النثر لم تألفه العامة واليك الآن أمثلة منها تعرفه عند القراء :

فمن ثمره قوله من رسالة « ان كان للآداب أطال الله بقاء سيدنا نسيم يتضوع .
وللذكاء نار تشرق وتلغ . فقد فغمناعني بعد الدار أرج أدبه . ومحا الليل عنا ذكاؤه
بتلبيه . وخول الاسماع شوقاً غير ذاهبة . واطلع سيفه سويداوات القلوب كواكب
ليست بغاربة . » ومما كتبه الى صديق له سأله ان ينقصه في ترتيب المكتابة « وقد
أيقنت ان رسل نصيحته ليس بسمار . وان صواب رأيه عن غير ائثار . ولم اكتب في
امري فلان الامتشكر آثم ثبت باسترفاد المعونة مذكرا . اذ كان ادام الله عزه لا يشير .
لسأله الى الوفد البعيد . ولا يضرب لراجيه رؤوس المواعيد » وكتب الى ابي القاسم
المعري جواباً عن فصل كتبه اليه وهو يرثه « كلام خبري بالهمود . واشسرفت على
الخمود . نعشي الله بسلام يرد من حضرته يجعل اثره كالروضة الحزنية . والبارقة المزنية .
ولو كنت عن نفسي راضياً . لشرفتها بزيارة حضرته . ولكنني عنها غير راض . ومما اقرني
الى انقراض . ولما انا قضيت التمراد . ومختلف المراد . قد عددت في اناس قيل فيهم
تهلك امة قد دخل لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون . عما كانوا يعملون . فان
نعمت اوشقت . فدعائي يتصل بحضرته مابقيت له » وكتب من رسالة « لو اتصلت
كتب مولاي كاتصال الامطار وتوالت توالي الانفاس لكنت بوليها . أمرني بوسميتها .
والى مستأنفها . أشوقني الى سالفها . وما يكتب الا في بر . ولا يحث على غير المصلحة
في الجهر والسر . وما ادري ما قول في السعادة التي قد رزقتها عنده حتى غطت معايبي .
وسترت الاسدة التي أضرت بي . فما انكر بعدها ان تعد نطفات الدر لأم الادراض .
وان تصاغ مناطق الذهب للرباح . وان يدعى المدعون ان ريش ابن انقد سهام صائبة .
او قنوات بزنيه . . . » وقد اطال في بعض رسائله حتى ان المطالع يمل مطالعته ولا
يتجملد ليم قراءتها واخصر رسائله ما ختمها بقوله
« كانت اکتبي اليه كبارح الأروى تكون في الدهر مرة . والآن صارت كسوانح
الغربان وبوارح الغلباء

تكاثر الطباء على خراش فما يدري خراش ما بصيد

ومن الحف فدواؤه ما قال بشار . وليس للحف مثل الرد . وعليه سلام لو كان يوماً
لكان يوم عرفة . او شهراً لكان نالفاً اي شهر رمضان والسلام وحبي الله وحده » وقد
عني بطبع رسائل المعري هذه الاستاذ مرغليوث وترجمها بالانكليزية معلناً عليها شروحات
مفيدة من اديبة وتاريخية مصدره بترجمة المؤلف للمؤرخ شمس الدين الذهبي معتمداً على

نسخة في مكتبة ليدن قابلها على نسخة بيروت المشار إليها وقال إنها ينقصها تسع رسائل وبعض العاشرة .

ومن نثره الذي بين أيدينا الآن (رسالة الغفران) وهي التي وصفها شمس الدين الذهبي في ترجمة المعري بقوله « له رسالة الغفران في مجلدة قد احتوت على مزدكة واستخفاف وله رسالة الملائكة ورسالة الطير على ذلك الامتداد » أرسلها الى علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ^(١) صدرها باشواق وتحيات ثم اشار الى وصول رسالته اليه واثنى عليها ثم استطرد الى وصف الجنة وتعيمها ومن دخلها من الشعراء والملائكة على اسلوب اشبه بالشعر القصصي الروائي عند الافرنج اليوم فجاء بعده باكثر من قرنين دانتى شاعر الايطاليين ونسج على منوالها (الرواية الالهية) وملتون شاعر الانكليز (الفردوس الضائع) وغيرها ولكنهما لم يفرجا باللغة مثله . وقد طبعت رسالة الغفران مصححة بقلم الشيخ ابراهيم اليازجي اللبناني في مصر سنة ١٩٠٧ م سنة ٢١٣ صفحة . ولما نستختان مخطوطتان احدهما في المكتبة الخديوية بمصر والثانية في مكتبة الكوبرلي في الاستانة . ولا بأس ان نختب منها الآن قوله في الشعر صفحة ٥٥ : « فقال وما الاشعار فاني لم اسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة . فقلت الاشعار جمع شعر . والشعر كلام موزون لبقه الغريزة على شرائط ان زاد ونقص ابانة الحس . وكان اهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات فجئت بشي منه اليك لعلك تأذن لي بالدخول في هذا الباب » ومن قوله في اللغة صفحة ٩٣

« والباب فيما كان مضاعفا متعديا ان يجي بالضم كقولك عدت اعد ورددت ارد وقد جاءت اشيائه توادر كقولهم شددت الحبل اشد واشد ونمت الحديث اتم وانم وعلت القوم اعل واعل . واذا كان غير متعد فالباب انكسر كقولهم حل عليه الدين يحل وجل الامر يحل . والضم في غير المتعدي اكثر من انكسر فيما كان متعديا كقولهم شح يشح ويشح وشب الفرس يشب ويشب وصح الامر يصح ويصح ونخت الحية تقح وتقح وجم الماء يجم ويجم وجد في الامر يجد ويجد في حروف كثيرة اه »

وللمعري مؤلفات كثيرة غير ما ذكر الملع اليها الحاج خليفة في كشف الظنون اهمها ظهر المعصري في النحو . والفصول والغايات . واقليد الغايات . وكتاب الفصول . وكتاب

(١) وقد اراني صاحب مجلة المقتبس نسخة من رسالة ابن القارح هذه سينشرها

قريباً .

الصادر • وقاضي الحق • والقائف على مثال كلية ودمنة وتفسير منار القائف • ومهيج
الاسرار • وملطي السبيل في المواعظ • والمواعظ السنية ونظم السور • والختير النافع
في النحو • وخطب الخليل عن السننها • ورسائل المعونة • والصالح والساجح • وزجر
النائح يتعلق بلزوم ما لا يلزم • والسجعات العشر في الوعظ • وسجع الخائم • والسجع
السلطاني في مخاطبات الملوك والوزراء • وسجع الفقيه • وسجع المضطربين عمله لرجل
تاجر يستعين به على دنياه • وشرف السلف عمله لامير الجيوش • واهم مؤلفاته الا بك
والفصون او الهمة والردف لم يغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب
الا احصاء ما يقع في الف ومائتي كراس وربما بلغ اربعين مجلداً من كتبنا اليوم • الى
غير ذلك مما يغني قليلا عن كثيره

فهذا شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة وهذه آثاره التي خلفها لتاريخه
الله تشدد قول ابي الفتح حصينة المعري فيه :

وعجبت ان تسع المعرة قبره ويضيق بطن الارض عنه الاوسع
لو فاضت المبهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الادمع
زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف

نظر لآفي النظرات

نقمة ماورد في الجزء الماضي

اراد المنفلوطي في كلامه هذا ان يخطي " الامام بأن مادعا اليه من المبادي الدينية
لم يحن بعد وقتها وان سواد هذه الامة لم يتأهلوا لقبول هذه المبادي " جاعلاً ذلك علة
العلل في الحادهم ومروقهم من الدين وهو قياس منطقي أعيد المنفلوطي عن ان يحشوفكره
بمثله من الاوهام والخيالات التي ابان فيها عن فكر ليس له حظ من التجربة والاختبار •
لا يستطيع صاحب النظرات فيما علم ان يتكر ان جل الداعين ان لم اقل كلهم انجهم
الدهر وولدتهم العصور في اوقات كانت فيها الافكار حيرى يتارع بعضها بعضا في ميدان
الحياة • ومن هنا نعلم الحاجة الماسة الى المرشدين في مثل هذه الاحوال الحرجة والمآزق
الضيقة وانهم " قد قاموا بفكرة اصلاحية لا بد ان يلاقوا في طريقهم من عثرات الفريق
المخالف ما يستهدفون معه انسروب الابداء فيقومون بين مثالب الطعن والتقد حتى تنسرب

الفكرة الى بعض من يعمل على نشرها في سرهم وجهرهم ليبقوا من سعيهم هذا خيبة حيوية في المجتمع الانساني لمن يأتي بعدهم من تجد لها من عقولهم مباءة فتتأصل في نفوسهم فيستفيدون اذ ذاك ويقيدون بما يدعون اليه ويسعون وراء اشرابه النفوس ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

بمثل هذا قامت المذاهب والاديان وتأيدت الآراء العلمية والنظريات الفلسفية . واذا لم يكن الامر كذلك فلنلنا المنفلوطي برهانا يبين مصلحا قام بفكرة جديدة ولم يبق في وجهه في يثبته حتى من بني جلدته من يعمل على محاربتها او ناهضته بكل ما فيه من قوة وقدر .

ويا لله كيف جازله ان يحكم على ان المبادي السامية التي دعا اليها الشيخ محمد عبده كانت مدعاة للالحاد والمروق من الدين بدعوى ان دعوته لم يحن بعد وقتها او انه يوجد ثمة من يقمها وينبذها وانها نشرت بين فئة اتخذوا من هداها ضلالا ومن نورها دجى حالكا . وهو لا تلامذته مصريهم وشاميهم وعراقيهم وحجازيهم في عامة الاقطار يتناغون في مبادئه ويتدارسون كتبه لم ينظر اليهم الاستاذ المنفلوطي ونظر الى فئة ضالة مضلة لا بد من وجودها في كل عصر ومصر .

وكان الواجب على من لم يفهم ما اراد الاستاذ الامام واشتبه عليه بأن يسأل عنه اهل العلم فقد قال احد شيوخ العلم : « يستحيل في نظر العقل ان يدعو الحق الى الباطل والهدى الى الالحاد وأصول الدين الصحيح الى المروق منه ، بل ما بطل مبطل ولا الحد ملحد ولا مرق مارق الا بجهل بالاصول الصحيحة وببذخ التلم السديد وسلوك جواده القويمة » .

ولو كان من شروط الدعوة فقد التأثرين خشية مناهضتهم ومخاربتهم لما قام نبي بدعوة ولا علم بأرشاد وتعليم ولكانت الفكرة الاصلاحية التي قويت وشاعت بالمناهضة ثوت في توى الزمن قبل ان يلحد القائم بها والمكارأينا كتابا مؤثلا ولا ادبا غصا ولا علما صحيحا وبالجملة ما كانت للام مدنية زاهرة ولا عمران زاخر .

ولا وجه لانكاره على هذا الامام التأويل لان اتخاذ التأويل قاعدة مما لانكران فيه في كل تأويل جرى اللسان في مثله ووسعته اللغة وهي ثروتها وغزارة مادتها وسعت من المجاز ما يربو على الحقيقة حتى صرح أئمة البيان بأن المجاز أكثر من الحقيقة . ولو اعار نظره الى من سبق ذاك الامام في مسألة الجن والملك كحجة الاسلام الغزالي والراغب

الاصفهانى والقاشانى ونحوهم لما اكبر هذه المسألة وقد اوضح ذلك الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى في كتابه «مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن» واقاض في هذه المسألة بما لا يبقى معه ريبه لمرتاب فليرجع اليه من شاء^(١)

واما ما قام به الامام من بيان اسرار الدين وحكمه فذاك فن قديم عني به ائمة الاسلام وفلاسفته كلائمة الدين تقدم ذكرهم واضراهم وهو عندهم من اجل الفنون التي يجب درساها والتوسع فيها . وقد اخذوا على انفسهم ان يفهموا الامة ان الدين مواءم للعقل موازر للحكمة ليس فيه ما يعلو عن العقل او ينو عن الفهم وحجتهم في ذلك ان القرآن الكريم هو الذي مهد السبيل للتعليل وصرح بذلك في آيات لا تحصى كما اوضحه الامام ابن القيم في كتاب «التعليل» وقد حذا حذوه من المتأخرين حتى برع في هذا العلم — علم الحكم والاسرار — الامام ولي الله الدهلوي قال في كتابه المشهور «حجة الله البالغة» وافرغ جهده في استنباط الاسرار في العبادات والمعاملات حتى جاء في مجلدين كاملين حافظين . ولقد سفه المنفلوطي رأي قاسم بك امين ايضا وانحى عليه لانه دعا المرأة وقد رآها في احط دركات الجهل الى ان تلم بمعرفة ما يلزمها في جهاد الحياة وجلادها من تربية وتعليم لتكون امرأة صالحة لهذا المجتمع فتدير شؤون منزلها او تضرب في الارض لترزق ان عضها ناب الفقر وتجت بموت من يعولها ويكفلها وهو لم يدعها الى ذلك — كما يعلم المنفلوطي — الا خشية ان يمزق الحجاب وهي من الجهل المربع بمكان .

وما ذنب قاسم بك ان بين رأيه ولم يأبه لكيد الكائدين من تجار الادب والدين «والمرأة اخذت بالاسهل من رأيه وبالصق بنفسها من نصيحته فتبرجت ورفعت برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء»

ومما لامشاحة فيه ان رجل المرأة قاسم بك قام بدعوته احسن قيام فوصف الدواء بعد ان شخص الداء ولو كان في البلاد الاوربية لاتيتم له النصب والدمى — وان كان صاحب النظرات لا يقول بالتمثيل — احتفاء به واعترافا ببيض ايديه وسابقة فضله عليهم او لو كان المنفلوطي يقدر عمل العامل وفضل الفاضل لما جراً على ان يقول فيه : «ما رأيت باطلا اشبه بالحق من باطله»^(٢)

(١) طبع في الاعداد الثلاثة من المجلد الخامس من هذه المجلة ثم أفردها منها كتاب

خاص على حدة (٢) مقالة طبقات الكتاب ص — ٤٣٢

— ٣٥ —

آراءه

ذهب الاستاذ المنفلوطي في طائفة من آرائه مذاهب فريق من فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر في اوربا حتى قابله بعضهم بروسو من حيث نظره الى المجتمع الانساني وبما قالوه : ان ما كتبه روسو في فن التربية والتعليم قائلا : « ايها الرجال ، لاترهقوا النفس الصغار على ان يفكروا كما تفكرون ويعتقدوا ما تعتقدون ولا تحاولوا افساد ملكاتهم بهذه الفضيلة الموهومة والحرية المطلية التي هي في مذهب العقل غاية العبودية ومنتهى الاسترقاق الخ ٠٠٠ » — ان ما قاله روسو تعرض له المنفلوطي في فصل له عنوانه « مدينة السعادة » ^(١) « واغرب ما لفت نظري افي لم ار في تلك المدينة ذات التمايز الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم وازياتهم كأن جميع سكانها سواء في حالة المعيشة ودرجة الثروة »

وفي المنفلوطي نزعة اشتراكية تفجلى على اشدها في هذا الفصل في قوله : « وحسب الرجل من البشر بيت بوويه ومزرعة صغيرة يقتات منها ودابة تحمل اثقاله ثم لاشأن له فيها سوى ذلك »

وقالوا : يرى روسوان الدور العالية التي شيدتها الحكومات للتعليم هي التي تفرس مبادي الجهالة في النفوس وتبعد الانسان عن عقله وفطرته ^(٢) والمنفلوطي يقول : « واي حاجة الى المدارس في مثل هذا المجتمع وليس بأمر بآبائنا منا فنحن الذين نتولى تعليمهم وتهذيب نفوسهم وتمرهم على العمل النافع فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم كيف يرمون البذور وكيف يستنبثونها وكيف يصنعون الآلات الزراعية وكيف يستعملونها الخ ٠٠٠ »

وبالجملة فمن رأي الشيخ المنفلوطي ان لا يكون في هذا المجتمع سيد ولا مسود ولا غني ولا فقير ولا حاكم ولا محكوم فالشطر الاكبر من الفلسفة التي يتبني اثرها هي فلسفة خيالية لاتأثير لها في ابناء القرن العشرين الا بقدر ما للاساطير من التأثير في العلوم الرياضية . وهي ان جاز ان يكون لها انصار قبل مائتي سنة او يزيد فلن تجد لها فيما احب من هذا الجيل الجديد الناشئ على افكار داروين وهيكلي وسبنسر ورائكي ومومسن وبازاك وزولا نصيراً وظهيراً لانها مخالفة لسنن الطبيعة والحياة العملية .

وقد ذهب مذهب (اسكندر دومافيس) ولقيف من مفكري المتأدبين الغربيين في مقالته «غرفة الاحزان»^(١) في المرأة المحرمة من حيث انهم يهدون لها الاعذار ويرون الرجل اجدر باللائمة منها لانها ضعيفة مقرطة الشعور ولانه هو الذي هم بها فراودها عن نفسها واراد ان ينزل بها سوء تغذعها اذ عاهدتها ان تكون له زوجة ويكون لها بعلا فسلها قلبها وشرفها وعفتها وغادرها حين علم ان في احشائها جنينا يضطرب وبين جنبها ناراً تضطرم وكان سبب شقاها حتى اصبحت حزينة ذليلة تفضل الموت على عيش لا تستطيع معه ان تكون زوجة لرجل أو أمًا لولد واخذ المجتمع البشري يتهم بها ويعبث بما زادها حزنا واكتئابا .

وقد مثل لنا هذه البغي وقد تركت وراءها ماتراه من النعمة الواسعة والعيش الرغد في ذلك القصر الذي كانت متمتع فيه بعشرة امها وابيها الى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه احد ولا بطرقه طارق لتقضي فيه البقية الباقية من حياتها .

ولم يكتف ببيان هذه الجناية وحدها بل جعل ان امها واباها قضيا حزنا لفقدوها ويأسا من لقاءها وختم الحادثة بان اضاف على تلك الجنايات جنابة اخرى وهي هلاك المرأة المحرمة بعد ان اودع نفسها من العواطف الشريفة ما شعرت معه بمصيبتها حتى ساورتها الهموم وبلغت منها مبلغا اودى بحياتها وهكذا ضاعف الجرم على الرجل وجعله كاذبا وخادعا ولصا وقاتلا وختم المقالة وهو يحض الرجال الفاسية قلوبهم النصيح للرفق بضعيفات النفوس من النساء .

والظاهر ان الاستاذ المفلوطي كان لا ينظر الى الحقيقة من حيث هي بل كان قلما حين يأتي على وصف حادثة يختلف باختلاف المظاهر والمؤثرات فينا نرى صفحات مقاله هذه مكتظة بأمثلة النفوس شققة ورحمة وعطفا وحنانا على العاهرات اذا به يرض عليها بجندي يقف ليخفها ممن يريد ان يسلبها من الحقوق ما لم يبق لها منها الا القمء ويستكثر عليها ذلك في موقف هي خليفة بالشفقة والعناية اكثر من كل المواقف .

ولقد رأينا وهو يتكلم على «المرقص» في الازبكية يحمل على الحكومة المصرية حملة منكرة ويحذم غيظا وحنقا لان هذه الحكومة المدنية المادية (على رأيه) التي هي مسؤولة امام القانون عن استقرار الامن واستنباها تبث بجندي يحمي ابواب العاهرات لتلا يعبث المشاغبون بالامن والسكينة او يعيشوا في الارض قساوا .

وعما قال : ^(١) « ان العين لا تكاد تملك مدامعها سحاً وتذرافاً كلما ابصرت هذا الجندي الشريف واقفاً هذا الموقف الدليل يسمع قواع الدفوف ، لاقراع السيوف ، ويرى حمرة الصبا ، لاحمرة الدماء ، ويحس الفسق والفجور لا القلاع والثغور . وما اعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بمجنديها ان يشتمه شاتم او يلتمسه لاس فتغضب له غضبة مضرية تترأى فيها الشهامة والحمية والعزة والنخوة ثم لانضن ان تؤجره نائكة في الجنائز ، او قوادة في المرافض »

هذا ما قاله المنفلوطي وما يحدوه الى هذا الا انه ود ان يكون سيفه طليعة من يعمل بالدرس الذي القاه على الرجال القاسية قلوبهم ليعلمهم فيه الشفقة والرحمة والاحسان !!! وما اراه في مبداء هذا الاكتولستوي الفيلسوف الروسي الشهير الذي يهيج هائج على الحكومة الروسية ويسمها بالمعرة والدعارة لانها تبعث بالاطباء الى المواخير العامة وتهد اليهم ان يعنوا بشطيرها خيفة ان تنتقل جرائم الادواء الدوية من هؤلاء البغيات الباغيات فتعم الشعب بأسرها وتراه يرمي الاطباء بكل مكروه بدعوى انهم يدعون وراء اشاعة الموبقات وتسهيل اسباب الفسق والفجور ^(٢)

ويقضي علينا الاخذير أي هذا المصلح الاخلاقي الروسي ان نهمل تعهد اما كن الفسق والمواخير وان ندع الجرائم تفك بمن ملكت عليهم امرهم لتسري العدوى في الآخرين وتنتشر الامراض الوبيثة الوبيطة في الامة حتى تهلك عن آخرها بدعوى صون اخلاق الشعب كيلا يتطرق اليها الفساد والخلل .

وقد رحم السيد المنفلوطي للمرأة البغي في غير هذا الموضع ايضاً وحض على الزوج بها ^(٣) ليرد اليها عرضها وزعم ان ذلك من اعظم التبرعات وعد الرجل الذي يرد العرض للضال الى صاحبه المفجوع فيه اشرف ممن يمنح الحياة فاقدتها . على شرط ان يكون اليباع على الزواج الرحمة والرأفة والحنان والشفقة لينظر في اصلاح قلبها ويحاول ان ينزع من جنبها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ويدخلها مداخلة المؤدب المذهب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشتغل لها .

وعما قال : « ليت الرجال يأثمون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة (الزواج) كل امرأة ساقها فقرها وعدمها او فقد عائلها الى البقاء »

(١) ص ١٥٢ (٢) رواية البعث لتولستوي (٣) مقالة الاحسان في الزواج

وقد صرح في هذه المقالة ان « بغاء البغي شقاء ما جناه عليها الا الرجل فنجدير به ان يغم ما اتلف ويصلح ما افسد » وتعرض للمرأة ايضا في مقالة التوبة ^(١) فكأن بين جنبيه جذوة نار من الحقد والموجدة لتقد على الرجل لانه قتلها وعلى المجتمع الانساني لانه لا يعاقب القتائل على جرمه ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

والغالب ان ثقته بالجرائد المصرية ضعيفة جداً فهو يراها نادياً من اندية القمار والكتاب جماعة اللاعبين والروؤوس المصرية موضوعة على مائدة الالعب كما توضع الاكر على طاولة « منضدة » (البلياردو)

والسيد وطني سلمي معتدل يفضل اتفاق الاحزاب السياسية على اختلافها وتعارفها على تناكرها مادامت الغاية من تأليفها « تحرير الوطن من رق العبودية »

ومن رأيه ان العلماء والجهلاء سواء ^(٢) وليس بين الفرقين من الفرق الا ان هؤلاء لا يعرفون كيف يعبرون عن آرائهم وانكارهم واولئك اعرض عنهم في كيفية افشاء الحكمة اليهم وسعيهم وراء وعظهم وارشادهم وان ما ينطق به الحكيم العالم من جوامع الكلم هو نفس ما يأتي به الجاهل من الامثال لولا ان كلام الاول في اسلوب مجود ومقال الثاني في تعبير مبتذل .

بقول قوله هذا ثم يكتف في مقالة « موت العظلاء » مانصه : ^(٣) « ليست هذه العشرة ملايين (يعني المصريين) التي تراها الاطفال الارضع ، وسوائهم رتع لولا علماءها واذكيائها الذين يقودونها الى الخير ويأخذون بيدها في ظلمات الحياة »

فليت شعري اذا كان العلماء والجهلاء في مستوى واحد من العلم والتربية فلماذا ينبغي على أمته وابناء دياره وينظم منزلة الحيوانات العجم وفيهم العالم والجاهل . واذا كان المنفلوطي قد وجد في معاجم اللغة ان ماد في العلم والجهل من الالفاظ المترادفة فيكون كلامه حينئذ جامعاً لمتناقض الاحكام .

— ٩ —

لفته

لم ارفها رأيت من الكتب الممتعة التي وعت نتاج قرائح اهل الادب في هذا العصر كالريحاني وامثاله انصح لغة ولا اصح تركيباً من كتاب « النظرات »
فانك ترى على فصوله مسحة العربية الاولى وقد خلت في الغالب من ركائبات الكتاب

الجدد والمبدوء من تراكيهم وجملهم المتعاطلة التي اعتورتها العامة حقبة من الزمن
انسلخت فيه عن العربية الخالصة حتى اصبحت الى الاعجمي اقرب منها الى اللسان
العربي المبين .

بيد اننا نرى من الواجب ان لاثمك القلم في نقد ماراً بناه من سقطاته سيفه حمل
نزلت منزلة اقوال العامة والفاظ لغوية كان الاجدر بكتاب ادبي مثل هذا ان يكون
مصوناً عنها .

فما نأخذه به استعماله فعل (ازدرى) متعدياً بالياء والعرب لا يعرفونه الا متعدياً
بنفسه في قوله في مقالة « النبوغ » « من العجز ان يزدرى المرء بنفسه » واستعماله
(الوظيفه) بمعنى (المنصب) وقوله : « خرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية »
والصواب ان يقال : « من الحيوانية والناطقية » وقوله « جداً عجيب » والاولى ان
يقال « عجيب جداً » لان « جداً » اذا قدمت اضيفت الى ما بعدها ونسبت « بديهية »
على « بديهي » وكان عليه ان يقال (بدهي) كما يقول سيف « ببجيلة (ببجي) واستعماله
(تلاثم) بمعنى التأم في قوله في مقالة الجمال « غير متناسبة ولا متلائمة » وقوله : « ويحبس عليها
اناسها » فالتحبس هنا لا تعتمدى الا بـ « عن » فاذا تعدت بـ « على » كانت بمعنى
« الوقف » واستعماله « البسيط » بمعنى « الساذج » وقوله « ودققت النظر » والعرب
تقول . « دقق الشيء اذا انعم دقه » واستعماله « تربى » بدل « ربى » وجمعه لفظة
« مثل » على « امثلة » والاسموع « امثال » وقوله « في السنة العامة » والصواب « على
السنة العامة » واستعماله « الاعواج » بدل « الاعوجاج » و « تعرج » عوضاً عن
« تعوج » و « احتجز » بمعنى « منع » وقوله « لاتسلم الا الحياة » وهي عامية والافصح
« ولاتقادي الا بالحياة » وادخاله « واو الحال » على الماضي بعد الا كما انها لاتدخل على
المضارع المثبت في قوا . « فمارأيت سطوراً متقطوعة الا بسط متشابهة الاطراف الا
وقرائتها » وقوا . « نهشه في اصبعه » والصواب « نهش اصبعه » واستعماله « الاعراض »
بمعنى « العلامات » وقوله « يودعه الله في فطرة الانسان » والصواب « يودعه الله
فطرة » الخ

هذا مارأينا ان تنبه على ماورد في كتاب النظرات من الالفاظ والجل مما لا عهد للعرب
به كما ان ثمة الفاظاً اغفلنا ذكرها كاستعماله لفظة (المراسح) بدل (المسارح)

و (البالونات) عوضاً عن (المنافيد) و (الميكروبات) بدلاً من (الجراثيم) و (الطاولة) بدل (المنضدة)

والعاقل يغتفر له هذه الهنات البسيطة إذا عرف أن الكاتب بين ظهري أمة معظم صحافيتها وأدبائها وكتابها يرون أن في هذه اللغة التي يكتبون بها الغناء والكفاء عن أن يتحدوا العرب العاربة في مناجي أساليبهم وأقوالهم والله في خلقه شؤون .



وصفه

وهب السيد المنفلوطي ملكة خارقة في الوصف تكاد تكون فيه طبعاً وسليقة . واني لأقرأ له القطعة الأدبية فيجئني الي من سرها أن تفحة من فلم « هيكو » تهب علي فلا أكاد أتم قراءتها حتى أتم باعادتها المرة بعد الأخرى وأحمد الله أنني أن رجدي في هذا العصر من يفتح هذا الهيكل البالي من الأدب روحاً جديدة ليحيي حياة رغد وهناء :

قال في مقالة الغد : ^(١) « الغد بحر خضم زاهر يعب عبابه وتضطرب أمواجه ، فما يدريك أن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر أو الموت الأحمر »
« ولقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الأبصار حتى لو أن انساناً رفع قدمه ليضعها لا يدري ايضاً علي عتبة القصر أو علي حافة القبر »

« الغد صدر مملوء بالأمرار الغزار تنوم حوله البصائر ، وتسقطه العقول ، وتندرجه الانظار فلا ييوح بسر من أسرارها إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال »

« كأنني بالغد وهو كامن في مكنته راibus في مجتمه مثلفع بفضل أزاره ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزو والسخرية ، ويتشم ابتسامات الاستخفاف والازدراء »
« يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث وهذا الباني أنه يني للخراب ، وهذا الوالد أنه بلد لبوت ما جمع الجامع ولا بني الباني ولا ولد الوالد »

الى أن قال : « ايها الشبح المائم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لتري لحة واحدة من لحات وجهك . اولاً فاترب منا علنا نستطيع أن نستشف خيالك من وراء هذا اللثام المسدول فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك »

« ايها الغد ، ان لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وامياني حسناً وغير حسناً . فخذثنا عن

آمالنا اين مكانها منك ، وخبرنا عن امانتنا ماذا صنعت بها أاذللتها واهنتها ، ام كنت لها من المكرمين . لا لا ، من مرك سيفي صدرك وابق لثامك كئي وجهك ولا تتحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وامايننا حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فلأما نحن احياء بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداء بالآماني وان كانت كاذبة .

وحسبنا هذه القطعة الذهبية التي اوردناها هنا دلالة على مكانة الكاتب من ملكة الوصف ومبلغ ما وهب من القوة الطبيعية في التثر الشري او الشعر المشور .

وللنفلوطي في بعض فصول كتابه تشاويه جميلة واستعارات جديدة ربما غمضت على عقول من اعتادوا تعجيد القديم من المتأدين او تعامى عنها بعض من يرى « المعاصرة حراماً » فلم يرقموا لها شأناً ولم يقيموا لها وزناً كقوله : ^(١) « قنشت عن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغني اما شحيحاً او مثلاً فاقاً . اما الاول فلو كان جاراً لآيت فاطمة (رضي الله عنها) وسمع في جوف الليل انينها وانين ولدتها من الجوع ما مد اصبعيه الى اذنيه ثقة منه ان قلبه (المتحجر) لا تنفذ اليه عاطفة الرحمة ، ولا تمر بين طياته نسيات الاحسان » وربما انكروا عليه وصفه القلب بالتحجر وعد جعله الاحسان نسيات اغراقاً منه في الجواز ومبالغة في الاستعارة ولكن الحقيقة في غير ما يزعمون .

ومثل قوله : « فقد عقد رياء الناس امام عيني سمحاً سوداء اعظم لها بصري حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً ساطعاً » وقوله « درع منوجة من نسيج » وقوله : « بهذه الصواعق التي يمتطرونها علينا من سماء الصحف » ومن جملة الجميلة قوله : « وما نشر الظلام اجنحته الرداء في الافق حتى رأيتني احير من دعة وجد في مقلة عاشق يدفعها الحب وينمها الحياء . لا اعلم هل انا سر كامن في باطن الظلماء ، او حوت مضطرب في اعماق الماء » وقوله ايضاً : « وهناك احسست بسلسيل بارد من الامل يتسرب الى قلبي فينتع قلته ويطغى لوعته » وقوله في مقالة يخاطب بها المحزون : « انت سزين لان نجماً زاهراً من الامل كان يترأى لك في سماء حياتك فيملاً عينك نوراً وقلبك سروراً ، وما هي الاكر الطرف انت افتقدته فا وجدته » وقوله : « ابتسامة هادئة » الخ . . .

وقد اجاد الشيخ في مقالة « غرفة الاحزان » ^(٢) ايما اجادة حتى ان قاري القصيدة ليجد اثرها في نفسه بعد قراءته لها في دعة تترق في جفنه فتتم عن عواطفه وشعوره . وما هي

لوحلت الا جائزة القلب الى العراغ الذي خط تلك السطور بأسلوب يتدفق شعراً وشعوراً .
ولا يسه الا ان يكبر ذلك الوصف الذي لم يعامة اطراف الحادثة اكباراً فكان جامعاً
لما تشعر به النفس من ديب الآلام واعياً لما يصدر عن النفس السامية من
شريف العواطف .

— ٦ —

روح المؤلف

اذا صححت النظرية القائلة بان « الكتابة صورة الكاتب » جاز لنا ان نحكم على المؤلف
انه من جماعة المتشائمين *Pessimistes* ولكن لا في مذهب من المذاهب
الفلسفية او التاريخية او السياسية بل هو من يرون ان لاسعادة في الحياة ولا نهاء وان
من العبث ان يلقي المرء بنفسه الى التهلكة في معترك الحياة مادامت الرذائل آخذة
من النفوس مأخذها وان مانسميه فضيلة ليس الا خداعاً ورياءً وتفاكاً دعيت بالفضيلة
وهي ليس لما ظل في هذا الوجود .

هو ينظر الى المجتمع نظار الخائق الناقم لانه يعتقد انه « مصاب بالسقم في فعبه
والاضطراب في تصوره فلا عبرة بحكمه ولا ثقة بوزنه وتقديره اذ هو يسمي الفقير
سافلاً وطيب القلب مغفلاً وطاهر السريرة بليداً والحليم عاجزاً »^(١)
وانك انرى في مقالاته « اين الفضيلة » روح اليأس مجسمة وما يتخيله او يفكر به هو
قد مر بخاطر كثيرين من أدباء المشرق والمغرب وكثيراً ما اجهد الكاتب من هؤلاء نفسه
ليضع قصة يأتي بها على ضرور العالم ومفاسده وكنت كلما مررت بسطر من سطره تصب
اللعنات على هذه الحياة التي تراها مثال الشقاء وتمثل آتخذ بقول الشاعر العربي الحكيم :

انما نحن بين ظفر وناب من خطوط اسودهن ضراء
نتمنى وسيف المني قصر العمر فنفسدو بما نسر نساء
صحة المرء السقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نفتديه نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
مالقينا من غدر دنيا فلا كما نت ولا كانت اخذها والعطاء
من فساد يحويه للعالم الكو ن فما للنفوس منه القاء
قاتل الله لذة لا ذانا نالها الامهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فأيجادنا علينا بلاه — الخ . . .

يداك على هذا اضحكاً ما نثرأ له في مقالة « التمرة البيضاء »^(١) ويبنى بها شجرة المشيب التي رأينا تلوح في فوده بخاضها مؤثراً ايها بانها تدفني له الموت وياغ في تأنيبها وتعنيفها ، وأغرق في عتبها ولومها ثم رجع بعد ذلك لنفسه وكأنه ندم على ما فرط منه بجبنها واخذ يخاطبها قائلاً : « ما الذي يجعله في صدره لك من الحقد والموجدة رجل لم ينم بشبابه فيحزن على ذهابه ، ولم يذوق حلاوة الحياة فيمزع لمراة المات ولم يستشق نسائم السعادة غضا رطباً فيأسى عليها عوداً يابساً »

« ما الذي ينقمه عليك من التوؤون رجل يعلم انك وحى الامل الذي يشربه بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء الا لحظات قليلة بكدرها ما يحيط بها من الموم والاكدار كما تذكر انفاس الحزن الحارة صفحة المرأة »

« اليس كل ما اعدء عليك من الذنوب انك طليعة الموت الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالسرور والآثام ، الخافل بالآلام والاسقام ، الذي لا أغمض عيني فيه الا لافتحها على صديق يغدر صديقه واخ يخون اخاه وعشير يحدد انيابه ليحضغ عشيره ، وغني يضن على الفقير بفئات مائتته وفقير يقترح على الغني حتى يلفه الموت فلا يظفر بامنه وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وروبه ونفوس تنفاني قتلاً على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض سافل ، وعيش باطل وعقول تنهالك وجداً على زار تحرقها ، وانياب تمزقها وعيون حائرة في رؤوس طائرة تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها »

هكذا رأينا المنفلوطي يرمي هذا العالم بنظرات كلها شؤم كما هو شأن جماعة المنشائين في عامة شؤنهم واطوارهم واحوالهم . ولولا انه « لا يقول الا ما يعتقد ولا يعتقد الا ما يسمع صدهاء من جوانب نفسه »^(٢) لقلنا انها خطرات شاعر وجدت لها من مهاد مخيلته مطلقاً ثم ما لبثت ان ادركها الغروب . اما وان هذا الكلام هو صورة من صور نفسه فلا جرم انها حالة نفسية كثيراً ما تعرو من يميلون الى التجرد عن المادة ويرون في سكون الموت وظلمته حياة مفعمة بالحركة والنور والرغد والسرور . . .

دمشق : صلاح الدين القاسمي

(١) الى العرب

يامعشر العرب الكرام تحية شغل التسم بها فبات عبيلا
 رقت فلولاً الشعر يحبس ذوبها وجدت لها بين السطور مسيلا
 من شاعر لولا هواه بقومه ما كان يرضى بالذراع خليلا
 باتوا يلوموني وبات القلب عن لوم الوشاة بحبهم مشغولا
 زادوا ولوعاً بالملام وامسرفوا فيه فزدت ثغورهم تقييلا
 حلت الثغور بذكر من احببتهم فرشفت من برد الى معسولا
 افي لاهنو ان ادرت حديثهم حتى كأنك قد ادرت شمولاً
 ماذا علي اذا عدت هرام دينا وغيره عده تظليلاً
 والناس مختلفون في اهوائهم متباينون مشارباً وميولاً
 ولرب محسوس ترعى آثاره ليست على كل النفوس شكولاً
 سجع الحاتم يستفز اخا الهوى طرباً ويحسبه الحزين عوبلاً

قومي وانتم خير من فوق الثرى واجلهم يوم الفخار اصولاً
 ردوا على الشرق القديم شبايه فالامر بات لعزكم موكولاً
 شخصت لواحفه اليكم وتغني نيل الرجاء تحققوا المأمولاً
 وانضوا العزائم للرفي وحسبكم يوم الطلاب تواكلاً وخمولاً
 لا تيأسوا فاليأس كم جرّ الردى وغدا على صغر النفوس دليلاً
 واخو العلى من لا يزال طلابه ابداً باسباب الرجا موصولاً
 فالروض يزهو بالنضارة بعدما نهكته عادية الهجير ذبولاً
 واذا انى امتنت وعز منالها كان الثبات بفيلهن كفيلاً

فامشوا الى كبد العلاء بهيمة تذر الجبال الشاخات سهولاً
 وتحموا الغمرات واصطبروا لها فالمره ان يجين يعش مرذولاً

(١) التبت في احدى الحفلات

والجهد مطلبه شديد فاخلقوا عنزماً يذلل صعبه تذليلاً

واستشهدوا التاريخ اصدق منبه
ايام تبشدر الجياد شوازيبا
يحملن ابطال الجزيرة طلعا
من كل اروع مثلما تهوى العلى
تلقاه بوثران يموت مكرماً
فتحوا البلاد وغادرت اسيافهم
بيض اذا انتضيت ليوم كرمته
كتبوا بها في الدهر آية سودد

ذودوا عن اللغة التي وردت بها
هي روح نهضتكم ومقد مجدكم
وحياتكم ياقوم فاحفظوا بها
آية الكتاب وانزلت تنزيلاً
فتعهدوها بكرة واصيلاً
او ترقضون عن الحياة بديلاً

لا تحبوا الدستور يسعدكم اذا
واذا الصباح بدا ولم نجف الكرى
فاسترشدوا بالعلم وانصرفوا له
وابنوا المدارس في البلاد كأنها
وهي الكفيلة حين يعمر ربعا
وتكاتفوا في السعي لاتخاذلوا
وتعهدوا الاخلاق فهي اذا التوت
ما كان تحرير الرقاب بنافع
لم تسلكوه للرقى سبيلاً
لم يجدنا فاق الصباح فتياً
وتدارسوا المعقول والمنقول
زهو تزيج من الظلام سدوا
انا نالك من الزمان السولا
في بيت كل خاذلاً مخذولاً
تركت ممردة الصروح طولوا
ان لم نحر انفساً وغقولا
دمشق: جرجي الحداد

الكتابة والكتب ودورها^(١)

افرايم المصريين الاقدمين وقد تركوا لنا كتبهم منقوشة على صفحات الجبال وفيه بطون المغارات وعلى اعمار البرابي والاهرام والمسلات ؟

ام هل انا كم حديث الاشوريين ؟ فقد اكتشف النقابون في هذه الايام مصاحفهم مرقومة على اللبن ، وهو الطوب المشوي او المطبوخ . وذلك لان ارض ما بين النهرين مكونة من طيني دجلة والفرات فليس فيها جبل ولا حجر . ولكن ذلك لم يقف حجر عثرة في سبيل الغرام بالكتب . فصاروا يرقون بالمسار على الطين وهو نقي ثم يطبخونه في النار ، استبقاء لكتبهم على ممر الادهار والاعصار

ثم انتشر هذا الغرام في مصر وعم وطم ، فاحتاج القوم لزيادة الكتابة ، واحسوا بما في النقش على الاجمار من الصعوبة ، فعادوا الى الطبيعة ، وهي الهادي الاكبر للبشر ، اخذوا البردي وعالجوه بما جعله صالحا للكتابة ، وهامى آثاره في دار العاديات المصرية بقصر النيل في القاهرة ، واكثرها في متاحف اوربا ، واما الصين والهند ، فقد كفتهم دودة القز هذه المؤونة ، في القيام بما يدعونه اليه الولوع بالكتب والكتابة ، واذا نظرت الى بني الاصفر واعني بهم اليونان والرومان تجدهم قد استعانوا بالحيوان ، فعالجوا الجلود وصنعوا منها مانسجية بالرقوق

واول من استبط ذلك الاغارقة من اهل فرغامة ، وهي مدينة بآسيا الصغرى تسمى عندهم برجامة Pergame فصار اسمها علما على هذا المصنوع من الرقوق ، ولا يزال باقيا عند جميع الافرنج الى الآن ، فان اهل ايطاليا يسمون الرق (بفتح الراء) برجامينو Pergamino اي الفرغامي لان العرب نقلت اليه الفارسية الى الفاء لقرب المخرج كما قالوا في Platon افلاطون وهكذا . واما الاسم العربي فهو مأخوذ من ترقيق الجلد بعد دبغه .

اما العرب فبلادهم جرداء قحلاء فلم ينقشوا على الاجمار ، ولم يطبخوا الطين على النار ، ولم يهتدوا الى صناعة الترقيق . ولكن ذلك لم يكن حائلا دون غرامهم بالكتابة والكتب . فكانوا قبل الاسلام في عصر النبوة يكتبون على عسيب النخل اي تحوف

(١) من محاضرة لاحمد بك زكي احد الباحثين العالمين في مصر القاها في ناديه
مؤلفي الحكومة في الاسكندرية في شهر رمضان الماضي

الجريد لكثرة هذه الشجرة المباركة في بلادهم . ويكتبون على الواح العظام (وكثرتها ناشئة عن ذبح الاضاحي) ويكتبون على نوع من الاججار المصقولة التي يلتقطونها من فيافيهم وبواديهم .

وتقف بالكلام على العرب دون سواهم من الامم الاخرى . فانهم ما لبثوا في خلافة الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء ، ان انتشروا في الارض فاخذوا على اهلها اساليب الحضارة . ثم احتاجوا الى التبسط في الكتابة ، لانواع الملك واستبحار المعمرات فكتبوا في العراق على الحرير وسموه بالمهراق . وكتبوا في مصر على البردي ولا تزال آثاره باقية في اوربا وبعضها في القاهرة في دار الكتب الخديوية . وكانوا يكتبون على هذا البردي باللغة العربية وحدها تارة ، ومصحوبة بالترجمة الرومية او القبطية تارة اخرى . ولا تزال هذه سنة مطردة في ديارنا ، اعني بها سنة الاحتياج الى لغتين مثال ذلك : الاجار واوراق البردي في عهد اليونان ، نواها مكتوبة بلغتهم . وباللسان المصري القديم ، وبسنة عهد الرومان - لـ اللسان اللاطيني محل اليوناني . حتى جاء العرب فكان من شأنهم ما ذكرنا . ثم انقضت مدة طويلة من ايام المأمون الى آخر الدولة الابوية استقل فيها اللسان العربي . حتى جاءت دولتا الممالك البحرية والجركية فاندجحت في اللغة العربية بعض الفاظ واصطلاحات دخيلة من التركية . ثم جاءت دولة العثمانيين فكانت السيادة في مصر للمالك الانراك حينئذ طامح في اللغة التركية وصارت تزام لغة البلاد . واستمر الحال على ذلك بعد جلوس الفرد الفذ العظيم « محمد علي » نابغة العصر الجديد الى ايام سعيد وبعد ذلك بدأت الفرنسية تغل قليلا قليلا محل التركية . وهاهي الآن تناخر في الميدان امام اللغة الانكليزية . والحق يقال ان لغة البلاد اخذت في الانعاش كثيرا بفضل خديوينا المحبوب عباس الثاني وبفضل حكومته الرشيدة السعيدة . وبفضل الحاكم والجرائد وسترون عما قليل حسنة جليلة من اكبر محاسن الحكومة الحاضرة يرتفع بها منار هذا اللسان وتجدد معها آداب العرب وعلومهم .

نرجع الى الكتابة والكتب فنقول ان العرب ما عتصموا ان يستخدموا الجلود بعد ترقيةها وكان من مزايها عندئذ انهم كانوا يغسلونها ويجددون الكتابة عليها . فأروا ان ذلك ان كان صالحا في بعض المعاملات الوقتية ففيه ضرر كبير على العلم كما رأوا ومن جهة اخرى ان الحرير يدعو الى مؤونة كبيرة مع ان الحاجة ماسة الى الاكثار منه . ومن الرق بل رأوا في ايام هارون الرشيد انهم كانوا مقلدين لغيرهم من الامم وان ما وصلوا

اليه من الحضارة والرجحان يوجب عليهم الاخذ باسباب الاختراع والاستنباط . فكانوا اواسـ من اصطنع الورق على هذا الشكل الباقي الى ايامنا هذه وسببهم ذلك نخاراً . وقد سموه بالكاغد^(١) ثم بالقرطاس ثم شاع اسم الورق وانتشرت معامل الورق من الخرقة اي من الكهنة في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتقل الى بلاد الغرب فكان لهذه الصناعة شأن كبير في بلاد الاندلس واشتهرت مدينة شاطبة بمعاملها ومصنوعاتها التي فاقت في الجودة والاحسان والاتقان وارت على ما بلغه اهل المشرق من هذا الباب ومن شاطبة كان الكاغد يحمل الى سائر بلاد الاندلس . ومن هناك انتقل الى افرنجية (فرنسا) ثم الى بقية ديار اوربا وقد ابغاه القوم في هذه الايام الى نهايات ما يخطر بالاحلام واتوا في ذلك بالمعجب العجيب حتى صاروا يصنعونه من الاخشاب وانعدمت هذه الصناعة من ديار الشرق كلها انصار عالة على غيره فيها وفي غيرها حينئذ توفرت عند العرب الاسباب المادية والعقلية فابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف وتهاوتوا على جمع الكتب وتطلب ما يتوي في ذلك السلطان والسوقة والخاصة والعامة والرجال والنساء . وجميع الطبقات حتى كثرت دور الكتب في القاهرة وامهات

(١) اما الكاغد فهو لفظ فارسي وقد كان لهذه اللغة الفارسية تأثير يذكر في العربية ايام العباسيين لان الفرس هم الذين رفعوا قواعدها وشادوا دعائمها وكان رجالهم هم المدبرون لامرها في اول قيامها ثم في ايام الخليفة السابع وهو المأمون بن هرون . وفي ايامه اخذوا ايضاً عن الروم علومهم ومعارفهم فقلوا لفظة *Carta* اليونانية وعربوها وهي بصيغة الجمع فقالوا قرطاس والغريب في هذا الموضوع ان انما اللغة نصوا على ان القرطاس يقال بضم القاف او بكسرها واجمعوا على ان الفتح لم يقل به احد . وهو امر غريب فان الفتح اقرب على اللسان واقرّب الى الاصل . وهذه اللفظة عربيها المصريون في ايام محمد علي في ضمن الاصطلاحات الجغرافية فقالوا خرطة مما كاة للتلفظ على الطريقة اليونانية للدلالة على المصورات الجغرافية التي يسميها ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار بلوح الرسم والتي ورد اسمها في بعض نسخ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي هكذا (لوح الترسيم) وانا اظن كثيراً ان هذه اللفظة من تحريف الترساخ او المساخ وان صحتها لوح الرسم كما رأيت في موسوعات ابن فضل التي ذكرتها لكم . ثم ان المتقربين في اللغة حرفوا لفظة خرطة فقالوا خريطة وخرائط وما دروا ان ذلك الاسم موضوع لجمعية الراعي ولكن قد كان ما كان

المدائن المصرية بدرجة لاتتصورها الآن لان بلادنا اصبحت خلوا منها بالمرّة لولا تلك الصيانة القليلة الباقية في دار الكتب الخديوية وفي الازهر الشريف تتلوهما المكتبة الحديثة التي انشأتها البلدية في الاسكندرية . اما البيوتات فقد اصبحت عددها اقل من اصابع اليد الواحدة واولها بيت السادات يتلوه بيت البكري في بيت المرحوم رفاعة وعبد الله فكري . واما الافراد فقد فابت النظر فلم ار غير المرحوم لطيف باشا سليم وبعده الفاضل احمد بك تيمور

وقد اردت ان اجري على هذا السؤال وان كانت خطواقي صغيرة وبدي قصيرة ولكنني خشيت ان تذهب مجموعتي من بعدي للعطار والزيات والبقال او تتفرق شذر مذر كما حصل للمجموعة النفيسة التي كانت تزدان بها دار المرحوم علي مبارك باشا في حياته . لذلك جعلتها من الآن خاصة بالامة ولا ازال دائبا الى آخر ساعة من حياتي على توسيع نطاقها والزيادة فيها

اذا رجعنا ليصرنا الى التاريخ رأينا يحدثننا عن دور الكتب في القاهرة فلتأخذنا لوعة لمجرد هذا الوصف ونبكي على ذهاب العين والاثار

فدور الكتب التي اسماها الفواطم يحدثننا المقريري عنها بما يثير الاشجان ويستعطر المذموم من الآفاق . فقد كان في قصر الخلافة وحده اربعون خزانة كانت فيها التوادر والنفائز فاخذ معظمها بعض الموظفين وبعض الاجناد الاتراك بدل مرتباتهم في ايام الشدة التي وقعت للخليفة المستنصر

وقد نهبت عرب لواتة شيئا كثيرا منها اغرب المقريري في وصفه ثم قال : ان عبيدهم واماهم اخذوا جلودها برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرقوا ورقها تأولا منهم انها خرجت من قصر السلطان اعز الله نصراره وان فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالا باقية الى اليوم بمثابة آثار تعرف بتلال الكتب

هذا عدا خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها احد وعدا خزائن دار العلم بالقاهرة « وهي مماثلة لما نسيه الآن اكاديميا او كما يقول صاحب كشف الظنون وابن ابي اصيبعة قبله : (افاذيتيا) » وسوى خزانة المارستان العتيق وقد بقيت الى ان بيعت في ايام صلاح الدين فاشترى القاضي الفاضل وحده منها مائة الف كتاب مجلد وادعها في المدرسة التي انشأها بالقاهرة . وفضل القاضي الفاضل ومكانته في الدولة الاربوية

يدلان على انه اختار افضل الكتب واحسنها ولكنها ذهبت بها الايام ايضاً فان الغلاء لما وقع بارض مصر في سنة ٦٩٤ صار طلبة هذه المدرسة يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز . وبقيت منها بقية تدولتها ايدى الفقهاء بالعارية ففترقت وكان فيها مصحف اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان وكان في خزانة مفردة له غربي الحراب . وهذا القاضي الفاضل كان يفتني الكتب من كل فن ويحتليها من كل جهة وله نسخ لا يفترقون ومجلدون لا يطلون . وقد بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة ١٢٤٠٠٠ مجلد طلب ابنه مرة ان يقرأ ديوان الحماسة وتوسل الى ذلك ببعض المقرئين لديه فامر الثاني الفاضل فاحضر له خازنه ٣٥ نسخة فصار ينفضها واحدة واحدة ويقول هذا بخط فلان وهذه بخط فلان حتى اتى على الجميع ثم قال: ليس عندي ما يصلح للصبيان وامر بشراء نسخة بدينار لولده وقد احضرت مجموعة رسائله في جملة ما احضرت من الكتب

وقد بقي بعض الكتب من آثار الفاطميين في مصر وزاد عليها المماليك وجعلوا لها خزانة عمومية ولكنها احترقت في سنة ٦٩١ فتلقت بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شي كثير جداً كان من ذخائر الملوك . والذي نجا من النار انتهبه الغلمان وباعوه بالبخس الاثمان فظفر الناس منها بصحائف محروقة فيها نفائس غريبة

ولم تكن هذه المدرسة هي الوحيدة في القاهرة فقد كانت خزائن الكتب في المساجد والجوامع والمدارس فضلاً عن القصور والمازول . وحسبي الاشارة الى بعض المدارس التي امتازت بجمع الكتب النادرة فمنها المدرسة التي انشأها بمصر القديمة في سنة ٦٥٤ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا (بكسر الحاء المهمل) وتشديد النون المفتوحة كما ضبط الثقات من المؤرخين) فقد كانت فيها خزانة جليلة من الكتب النادرة ثم نقلها بقيت عنده حتى مات ففترقت في ايدى الناس وكذلك الملك الظاهر بيبرس البندقداري جعل في مدرسته الظاهرية خزانة كتب تشتمل على امهات الكتب في عامة العلوم

فلا تولى السلطان قلاوون جعل في قبته البدعة خزانة الكتب في جميع انواع العلوم ولكن معظمها تفرق في ايدى الناس واقتدى به ابنه محمد فانشأ خزانة كتب بمدرسته التي شادها بجوار هذه القبة في الجهة المعروفة الآن بالنحاسين

وأما ائمة الامراء والافراد فهي كثيرة جداً مثل الامير متكفر سيف الدين الحسامي والحاج سيف الدين آل ملك والامير سيف الدين الجاي والطواشي سابق الدين مثقال والطواشي سعد الدين بشير الحمدار . واعم الكل الامير جمال الدين محمود الاستادار

ولا انتقل من هذا الموضوع قبل ان اذكر لكم ان نساء مصر كان هن مشاركة في هذه المأثرة وحصة كبيرة في الغرام بالكتب واكتفي الآن باسم الست عاشوراء بنت ساروج الاسدي وكانت عاتشة في ايام صلاح الدين والست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون بنت الملك العادل الايوبي وكانت من فضليات اهل العلم واشتهرت بالبراعة في الفصاحة وفنون الادب والسيدة الجليلة الكبرى خوندتتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون والست بركة ام السلطان الملك الاشرف شعبان والست ايديكين زوجة الامير سيف الدين بكجا الناصري

وقد بدد الزمن آثار تلك السيدات الكريمات فلم افقت على كتاب من تلك الخزانة الكثيرة وغاية الامر ان في دار الكتب الاهلية بباريس تحت غمرة ٢٧٥١ كتاباً في علم تعبير الرويا وهو مرتب على حروف الهجاء بشكل معجم ومكتوب في سنة ٨٣٣ هجرية برسم خزانة اميرة من اميرات مصر (احدى البرنسات) وهي بنت السلطان الملك الظاهر جقمق

كان هذا الغرام عاماً في مصر وفي جميع بلاد الشرق . وخصوصاً في الممالك الخاضعة لصولجان صاحب التاج في القاهرة . التي كانت عاصمة للامبراطورية المصرية . والشواهد كثيرة على هذا الولوع وحسبي ان اذكر لكم امناً واحداً من باب التدليل . وهو ابو الفدا سلطان سماه وصاحب التاريخ المشهور بالمختصر في اخبار البشر وصاحب الجغرافيا المسماة بتقويم البلدان الذي طبع وترجم في باريس قد جمع في خزائنه من الكتب ما لا مزيد عليه وكان في خدمته ما يناهز مائتي معمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمجتمدين والفلاسفة والكتبة

ولو اردت ان استقصي ما اعرفه عن الكتب وغرام المولعين بها ايام كانت الحضارة الاسلامية زاهية زاهرة لطال المقام ولم تكفي الايام لتلوها الايام وقبل الختام اذكر لكم قضية وقعت بمصر وهي من اغرب ما سطرته سجلات القضاء

وقفت على كتاب اسمه كنز الدرر وجامع العبر لابي بكر بن عبدالله بن اييك الدوادار وهو في تسعة اجزاء ثلثها بمكتبة ابا صوفيا والثلث الباقي بمكتبة طوب قيو بالقسطنطينية وهو في تاريخ مصر وفيه تفصيل غريب وبيان واف لانراه في التواريخ التي وقعت الينا . وليس هذا محل الشرح عن هذا السفر الجامع النافع . وقد كانت هذا الكتاب موقوفا على احدى المدارس بالقاهرة فاغتصبه بعض الاكابر واوقفه على مدرسته وفقاً صحيحاً شرعياً مرعياً فاقبعت عليه قضية بمجلس الحكم وحصلت المرافعة والمدافعة ثم اصدر النضاه حكمهم بطلان الوقف الثاني واعادة الكتاب الى مقره الاول باسم واقفه الاول . وقد قضت الايام بطلان هذين الوقفين وبانقسام الكتاب الى شطرين في خزانتي ولكن في غير مصر

ان العرب في اجتماع اهل الفضل والعلم في دور الكتب كانوا مقلدين لليونانيين في ائنة والرومانيين في رومية وكل منهما قد نهج على سنة اجدادنا المصريين اول من مدح الكتب على ما انبأنا به التاريخ الصحيح هو اول من اسس لها داراً خصوصية بديار مصر وجعل منفعتها عمومية

انا لا اجاري بعض الغلاة من العرب ومن ارى عليهم من المتوسمين الالمانيين الذين قالوا بوجود دور الكتب قبل حدوث الطوفان واخذوا بتصيدون الاقاويل من هنا ومن هناك ويقسمون الدلائل على غير طائل محتجين على ذلك بتعليم آدم الالهة وبالاعمة التي نقشها شيث وبالصحف التي نزلت على ادريس ويكفي ان نقنع بما هو وراء ذلك وهو قدم بل قدموس حتى لا نخوض بحور الخيال ونهيم في اودية الالهام . حسينا ان نرجع الى ما هو قبل اليوم بأكثر من ٣٢٠٠ سنة فهناك فصل الى التاريخ الثابت المنقوش على الاحجار وهو مما لا جدال فيه ولا مرأ . فذاك الاطلال المائلة الى الآن في صعيد مصر تنطق لنا بلسان هير وظيفي . بين وتقول ان اوسماندياس فرعون مصر الذي سماه اليونان سيزوستريس ورمسيس الثاني هو اول من اسس دار الكتب في مدينة طيبة بالصعيد وهو اول من مدح الكتب بعبارة وصلت الينا . وذلك انه نقش على باب تلك الدار كلمتين اثنتين جعلها رمزاً عليها وتلخيصاً لكل ما فيها رها

✽ شفاه الارواح ✽

ولعمري ان هاتين الكلمتين هما ابلغ من كل ما جادت به القرائع بعده في شرق البلاد وغربها وما هو مأثور عن عجم الام وعربها

وعن المصريين اقتبس اليونان علومهم ومعارفهم ونظاماتهم ولكنهم لما جاء الدور لهم لم يتيسر لهم انشاء مكتبة عمومية الا بعد الفرعون المصري بربوات من السنين لا تقل عن الخمسة القرون وذلك ان طاعية بيسترات هو اول من احدث بمدينة آثينس (أي اثينا) داراً من هذا القبيل لاستفادة الخاص والعام وكان ذلك قبل القرن السادس للميلاد وجمع فيها اشعار اوميروس بعد ان تلقفها من افواه الزواة كما كان شأن العرب من بعده باثني عشر قرناً في ايام بني امية وبني العباس . وما لبثت هذه الدور ان انتشرت بارض اليونان كما يشهد بذلك بيت قاله شاعرهم ارسطوفان

وفي يد كل انسان كتاب يلقنه افانين العلوم

وتولع اليونان بجمع الكتب والحث عليها لدرجة لاتكاد تكون مسموعة : دخل حاكم الى مدرسة النحويثينا فطلب من الاستاذ نسخة من ديوان اوميروس . فاعلمه المعلم بعدم وجودها فما كان من الحاكم في هذا الاهمال الا ان صفعه وخرج

ثم نهوس القوم بجمع الكتب من غير استفادة او افادة حتى رأى اديبهم لوسيان الشميشاطي ان يكتب رسالة باليفة في هجوم رجل جمع من الكتب طائفة وفيرة للجرد الاشتهار بانه جماع للكتب . قال ذلك الاديب مخاطب ذلك المذموم بما ترجمته

« في وسعك ان تعبر الكتب لغيرك فتكسب اجراً وفيراً ولكن ليس في طاعتك ان تستفيد منها فتتلا ولا قطعيراً . على انك ما اعرت منها احداً شيئاً مذكوراً فكان مثلك كالكلاب التي تنام في اسطبل الدواب فهي لاتقدر على اكل ما فيه من الشعير ولكنها تمنع منها الخيل وهي قديرة على الانتفاع باكله »

ولو تأخر هذا الاديب المجيد لخر ساجداً اذا سمع قول الكتاب المجيد « مثلهم كالخمار يحمل اسفاراً » فانظروا يارعاكم الله الى حسن الديباجة والى هاتيك الاجادة : واما قول لوسيان فما اشبهه بقول الجاحظ ولكن في ذم الحصيان ولا ازيد على هذا البيان بغير الاشارة عليكم بجماعة كتاب الحيوان واليكم مثلاً مما قاله العرب في ذم من يجمع الكتب وهو لا يدري بما فيها

زوامل الاخبار لاعلم عندهم بحجدها الا كعلم الاباعر

لعمرك ما يدري البعير اذا غدا باحماله او راح مافي الغرائر

فلما جاء دور الرومان انشأ الامبراطور يوليوس المنبوز بالمرتد وفي كتب العرب بالمرق

دار كتب في القسطنطينية واراد ان يقبشه بفرعون مصر ولكنه لم يبلغ شأوه فكتب على بابها هذه العبارة .

« لبعض الناس صباة بالخيال ولبعضهم ولع بالطير ولاخرين غرام بالوحش واما انا فقد تدللت منذ نعومة اظفاري بشراء الكتب واقتنائها »

ومما امتازت به مدينة القسطنطينية انها في ايام النصرانية حفظت في كنائسها علوم الاقدمين حتى جاء العرب فاستفادوا منها ونشروها من قبورها وكان لهم بهذه الوسيلة القدح الممل في ترقية الحضارة وبني الانسان وكذلك امتازت في ايام الاسلام بحفظ ما جادت به قرائع العرب الكرام في مساجدها وما علينا سوى اقتفاء اثرهم واتباع سنتهم . وقد فتحت لكم الباب وحسي ذلك فخرأ

جاء العرب في ايام العباسيين فانتهم اليهم كلمة عن سقراط فكانت محرقة لعزائمهم وجعلتهم ائمة الامم وقادة الافكار

قيل لهذا الفيلسوف : اما تحشى على عينيك من ادامة النظر في الكتب فقال : اذا سلمت البصيرة لم احفل بسقام البصر

وفي هذا المقام لا يصح اغفال ذكر المأمون فهو اول من اسس دار كتب عامة في الاسلام وسماها بيت الحكمة كما انه اول من اسس مجمعا للعلوم (افاضيا) وسماه دار العلم . هذا فضلا عن خزائن كتبه الخصوصية التي يروي لنا عنها ابن النديم كل معجب ومطرب

كان بمدينة الاسكندرية حاكم يسمى خليل ابن شاهين الظاهري اشتهر بتأليفين احدهما في عالم اليقظة والآخر في عالم المنام فلما الاول فهو كتاب زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والممالك ثم اختصره وسماه زبدة كشف الممالك وهو كتاب مفيد في وصف بلادنا واعمالها ودواوينها ووظائفها ونظاماتها وغير ذلك من محاسن هذه المملكة مع سرد ابيات مما نظمها بعض ملوكها وسلاطينها الى غير ذلك من النوادر والفوائد ولا حاجة لي بان اقول لكم انه لا يوجد من هذا الاثر النفيس ولا نسخة واحدة مخطوطة بذياب مصر كلها وهي وطن مؤلفه بل هي موضوعه ومدار مباحثه .

اما الكتاب الثاني فقد سماه « الاشارات في علم العبارات » والعبارة هي تعبير الرويا وتفسير الاحلام واسم العلم بالفرنسوية مأخوذ عن اليونانية

قال صاحب كشف الظنون : « كانت العرب في صدر الاسلام لاتعتني بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها وبصناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم لحاجة الناس طرأ اليها . وذلك منهم صوناً لقواعد الاسلام وعقائد اهله عن تطرق الخلل من علوم الاوائل قبل الرسوخ والاحكام » واقول ان الشارع هو الذي دعاهم الى تقييد العلم على اطلاقه فقد جاء في الحديث الشريف :

العلم صيد والكتابة قيد . قيدوا رحمكم الله علومكم بالكتابة
اخذ الشاعر قول الشارع فصاغه في بيت سائر ونظم بارع

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقة
ثم مدحوا الكتب كما مدحها فرعون مصر وقياصرة الروم من قبلهم فقال العتابي
وهو من اجلاء عصر الامين والمأمون

لنا ندامة لانمل حديثهم	امينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ماضى	ورأياً وتأديباً وامراً مسددا
بلا علة تخشى ولا خوف رية	ولا نتقي منهم بنائاً ولا بدا
فان قلت هم احياء لست بكاذب	وان قلت هم موتى فليست مفندا

ومدحها ابن طباطبا العلوي

لله اخوان افادوا مفخرا	فيوصلهم ووقائهم انكثرا
هم ناطقون بغير السمة ترعى	هم فاحصون عن السرائر تضرى
ان ابغ من عرب ومن عجم معاً	علماً مضى فيه الدفاتر تخبر
حتى كأني شاهد لزمانها	ولقد مضت من دون ذلك اعصر
خطباء ان ابغ الخطابة يرتقوا	كفي كفي للدفاتر مثبر
كم قد بلوت بها الرجال وانما	عقل الفتي بكتاب علم يسبر
كم قد هزمت بها جليسا مبرماً	لايستطيع له الهزيمة عسكر

وهو ينظر بقوله الاخير الى جواب جالينوس فقد قيل له : لم كان الرجل الثقيل اثقل من الحمل الثقيل فقال لان ثقله نلّى القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه

وفي ذلك المعنى الذي اشار اليه ابن طباطبا وهو في مصر قول لموتسكيو (ابن

خلدون فرنسا) وهو في باريس قال ما ترجمته : ما حل بي جيش المعلوم الا بدوته بساعة واحدة من القراءة

ومدح العرب للكتب كثير جداً أكتفي منه بكلمة واحدة منشورة : اهدى بعض الكتاب الى صديق له دفترًا وكتب اليه : هديتي هذه اعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد . لا تنسدها العواري ولا تخلقها كثرة الثقليل . وهي انس في الليل والنهار والسفر والحضر وتصلح للدنيا والآخرة . وتونس في الخلوة وتمتع في الوحدة . مسامر مطواع وتديم صديق .

وقال آخر : الكتب إساتين العلماء

ولكن كل هذه الاقوال وما شابهها مما نرويه عن المتقدمين والمتأخرين لاتعادل الكلمتين اللتين قالها فرعون مصر عن الكتب
شفاه الارواح

ولقد قام رجل من مشاهير الانكليز في اوائل القرن التاسع عشر وهو بلور ليثون فاشار بمطالعة الكتب لازالة انواع الامراض قال ما خلاصته : لقد اختلف في ضميري ان انظم دور الكتب على نسق جديد مفيد فبدلاً من ان يكون مكتوباً على الخزائن والدواليب والرفوف هذه الكلمات . لغة . علوم طبيعية . فن القريض ونحو ذلك اشير باستبدال هذه الكلمات باسماء الامراض التي تنتاب الجسم والروح مما يمكن مداواته بالاولفات الموجودة فيها من داء النقطة الى اخف التلذات فهذا النوع الاخير من الاستقام يصلح له قراءة الكتب الهزلية مع منقوع الشعير في قليل من اللبن الحليب فاذا غشي النفس من المعلوم التي يمكن ازالتهما مثل عدم تحقق الاماني او معاكسة الاخوان او معاناة الزمان في هذه الحال يحسن بالمصاب ان يتلو تراجم الاعيان والافراد فيتسلى بما اصابهم من البلايا ويحول مرضه باذن الله . فاذا ما طم الموم الغم قال روايات النجع دواء لهذا السقم . ولكن اذا حلت بالانسان مصيبة فادحة وجب عليه ان يشترق كل عقله ولبه وقلبه في عمل من الاعمال العظيمة التي تجعله ينسى نفسه وما حل به من الازراء

واستشهد المستنبط لهذا الطب الجديد الغريب بما حل بشاعر الالماني (جيته) فانه حينما مات ولده تفرغ لدراسة علم جديد وقيل انه اكمل فصول بعض رواياته البديعة فجاءت في نهاية البلاغة والاعجاز

فانظروا الآن الى ما صنعه الاسكندر الاكبر حينما هزم دارا ملك الفرس فانه ظفر في جملة الثنائيم الملوكية بصندوق يدعى الصنعة فقال للمقربين اليه : لاي شيء يصلح هذا الصندوق ؟ فاجاب كل منهم بما رآه . ولكن سيد الفاتحين لم يعجبه قولهم وقال انما يليق هذا الصندوق لحفظ الياذة اوميروس

وفي ايام الاسلام ظفر الحجاج بن يوسف عامل بني مروان بصندوق عجيب من ذخائر الفرس فامر بفتحها فوجدوا صندوقاً آخر ففتشوا فوجدوا صندوقاً آخر ثم رابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً فقال الامير : لعل فيه حماقة من حماقات الفرس . ففتشوا واذا فيه بطاقة مكتوب عليها هذه العبارة : من مشط لحيته في كل يوم طالت : ونحن لم نخرج عن الموضوع لان هذه الوصية كانت مكتوبة على قطعة من الحرير وانني اقلب الطرف يميناً وشمالاً فلا اجد من اوصيه بها ليخبرنا بصحتها بعد العمل بها

ولا يخفى عليكم ان عرب الشرق هم الذين احبوا علوم العرب ونشروها وها هم يحجم الغرب يعملون على هذه السنة الآن في المانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا وهولاندا واسبانيا والروسيا وسائر بلاد اوربا واميركا ولا امل لي الا ان ارى اهل مصر يشاركونهم فهم احق بتراث اجدادهم ولا يكون ذلك ولن يكون الا بالعناية بالكتب

هل انا كم حديث فرنسا وناهيكم بها في العلم والحضارة والعرفان ؟

انها مدينة لمصر الاسلامية بدبنتين عظيمين في انشاء دور الكتب العمومية اولها يرجع الى ايام الحروب الصليبية . فان الملك القديس لويس وهو التاسع بهذا الاسم شن الغارة على مصر في اول دولة المالك البحرية ثم عاد ادراجه مهزوماً ولكنه رجع ظافراً بفكرة حميدة ومأثرة جميلة . وهي انه اقتبس عن اجدادنا فكرة جمع الكتب بعضها مع بعض في دار واحدة وفتحها في وجه الجمهور لينفع بها الخاصة والعامة اترك الكلام لكاتب سيرته وامامه في صلواته فقد قال ما خلاصته :

« ان الملك النقي الورع القديس لويس وصل الى سمعه وهو قبا وراء البحار ان سلطانه من سلاطين الشرقيين يبدل عنايته في البحث عن الكتب المختلفة الانواع وفي استنساخها على نفقته ثم يضعها في دار عمومية ليستفيد من مراجعتها علماء بلاده فانه كان يجعل هذه المجموع تحت تصرف جميع الطالبين . فاراد القديس لويس ان يتشبه بهذا السلطان وعزم على بذل المال بجرود عودته الى فرنسا لنسخ الاسفار النافعة

وصحاح الكتب المقدسة التي يتأتى له العثور عليها في الادبار ليتمكن هو ورعاياه
 العاكفون على علوم الادب من درسها وحرثها للانتفاع بها وافادة الجار والقريب
 بمعارفهم وقد انجز هذا القصد فامر باعداد مكان لائق امين في باريس جمع فيه كثيراً
 من تصنيفات القديس اغسطينوس وامبرواز وجيروم وغريغوار وبقية ائمة المذهب
 الارثوذكسي . وكان يذهب في اوقات الفراغ للقراءة في هذا المكان ويسمح لغيره
 عن طيبة خاطر بمشاركته في مناجاة المؤلفين . وكان يوثق استنساخ الكتب على
 شراء اصولها لان ذلك في رأيه من شأنه ان يزيد في عدد الكتب المقدسة ويجعلها
 اكثر فائدة . وكان حينئذ يقرأ في تلك الكتب بمحض من خدمه وحشعه الذين
 لا يفهمون اللاتينية يترجم لهم بالفرنسية ما لا يدركونه من العبارات »
 غير انه في آخر عمره اصابه دخل سيفه عقله فبدد شمل تلك المجموعة وامر سيف
 وصيته بتوزيع الباقي على الادبار

واما الدين الثاني الذي لنا على فرنسا فيرجع الى عهد قريب منا وبيان ذلك ان
 القائد بوناپرت عند هجمته على مصر في فجر القرن الماضي على التاريخ الميلادي نهب
 كثيراً من بقايا الكتب النفيسة التي كان اجدادنا اخفوها او وجدوها بعد الفتح العثماني .
 وكل من ذهب الى باريس او اطلع على فهرس دار الكتب الاهلية فيها يأخذ العجب
 العجيب ان لم تساوره الاشجان والاحزان . فلقد اصبحنا اذا احشينا الى شيء من
 مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئاً في بلادنا ولا بد لنا من الرحلة والتغرب
 لتطلبها في بلاد الغرب

ولقد ادرك محمد علي ذلك عند ما اراد ان يجدد العلم في ربوع مصر فارسل نفراً
 من نابغي الازهر الشريف فعادوا وافادوا جدد الله عهدهم . ورافع رايتهم هو المرحوم
 رفاعة بك فطالما انشأ واشدد وصنف والف وترجم وعرب وكلنا عيال عليه وعلى اولاده
 اعلموا ان العرب والاسلام سرّاً عجيباً في تاريخ الحضارة والعمران . فالعرب اينما
 حلوا اقتشرت لغتهم قليلاً قليلاً ثم سادت رويداً رويداً ثم انتهت امرها بالانفراد
 والاستقلال . كذلك الاسلام اينما اقتشرت رايته استهوى العقول والالباب . ولكن
 الغريب ان العجم هم الذين ينشرون علوم العرب ودين العرب حتى لقد قال الخليفة
 الاموي سليمان بن عبد الملك : « عجب لهذه الاناجم ملكت مصر فلم تحتج الى العرب
 وملك العرب فلم تستغن عنهم » وماذا كان يقول هذا الخليفة ودولته أموية عربية

محضة : وماذا كان يقول لعاش حتى رأى عصر العباسيين او لو بعث من قبره هذه الايام ورأى حاجة العرب الى الاعاجم في كل شيء من مرافق الحياة وحاجتهم اليهم حتى ينفخ احياهم آثارهم او التهاقت على اقتناء آثارهم

ماذا كان يقول لو علم بالقصة الآتية ؟

تعلمون ان النصارى الذين خربوا دولة العرب ودكوا معالم الاسلام ومع ذلك فمن اقرب الغرائب واعجب العجائب انهم ما لبثوا ان دانوا بدين العرب المغلوبين وتشبهوا بملوكهم البائدين في احياء العلوم وتوسيع نطاق العمران . سر من اسرار الطبيعة لانزاه الا في شؤون العرب ومعارفهم . فبعد ان هلك هلاكاً وبعد ان مارت الارض بتيور فادخلته في تأمورها جاء احفادها فدخلوا في دين الله افواجاً وارقوا بهم وارتفع بهم مناره في بلاد آسيا الوسطى وفي بلاد الهند الى اوائل الجيل المائى ومن اشهرهم في العلم والعلماء النع بك واسمه محمد بن شاهر روض اعتنى هذا الرجل بعلم الفلك والف فيه زيجاً باللغة الفارسية ترجمه الى العربية بعض افاضل المصريين والترجمة في خزني بصري وجمع هذا الرجل خزانة من الكتب النفيسة رأيت من بعض بقاياها كتاب الصور السائبة لعبد الرحمن بن عمر بن محمد ابن سهل الصوفي ويسمى بابي الحسين ويعرف بكتاب صور الكواكب وبكتاب الكواكب الثابتة وهو الذي اريد ان احدثكم عنه في هذه الساعة

هذا الكتاب لا ابالغ في فضله ولا اذكر شيئاً من محاسنه وانما اقول لكم ان الروس عرفوا قدره فطبعوه في بلادهم ثم اعزوا الى احد علماء الفرنسيين ترجمه الى اللغة الفرنسية وطبعوا هذه الترجمة ايضاً في بطرسبرج . وهذا الصنيع المزدوج يدلكم على فضل الكتاب وفائدة . واذا بحثتم في ارض مصر من الشلالات الى الاشائيم ومن بادية العرب الى صحراء لوبيا لالتمدون سوى الترجمة الفرنسية وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية اما الاصل العربي فقد اُس طاقية الاختفاء وتطير في القضاة وهجر ديارنا وواصل غبرنا فيما وراء البحار ورحل عن ارض اهلين بها الى بلاد ظهرت قيمته بين اهلها بحيث ان العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم اذا احتاجوا الآن لمراجعته وجب عليهم ان يتلفنوا احدي هاتين اللغتين الفرنسية او الفارسية او ان يذهبوا الى بطرسبرج وان استبعدوها فالى باريس وهناك يجدون منه خمس نسخ استغفر الله بل ستالان السادسة هي التي سأتكلم عليها . ففي سنة ١٨٩١ عشر يوسف بك خلاط على نسخة ملوكة

من هذا الكتاب مكتوبة على ورق الحرير بالوان مخملية بالنسخ والثلث وقد بلغ الكتاب فيهما نهاية الاجادة والانتقال وازدانت بصور ملونة باهية زاهية بتدفق فيها الذهب واللازورد على احسن شكل واجمل مثال .

وفوق هذه المزايا التي تجعل للنسخة قيمة يتنافس فيها المتنافسون ويشعشعها العارفون فانها حوت اثراً آخر يزيدها قيمة لدى اهل الدراية . ولكن ابن هم في ديارنا . . . وذلك انها مكتوبة برسم خزانة الملك العالم المؤلف (الغ بك) وعليها اسمه بخطه فصارت بذلك نادرة النوادير وذخيرة الفخائر .

عرضها يوسف بك على دار الكتب الخديوية فقومتها اني لاسمي من ذكر القيمة ولكن اقولها لكم لتعلموا مقدار تفریطنا . قومتها بخمسة عشر جنيهاً مصرياً . وظننت ان ذلك شيء كبير . وكيف لا وهذا المبلغ يساوي الى الف ونصف الف من القروش او خمسة عشر الف مليم : توجه صاحب الجوهرة الى الغازي مختار باشا فزاده الربع . توجه الى الارسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة الكائنة الآن بجوار دار ناظر المعارف الحالي فضاغت له الثمن اربع مرات ووعدته فوق هذه المساومة . بوسام المجمع العلمي الفرنسي . فقبض الثمانين جنيهاً ولا ادري اذا كان احرز النشان ولكنه اشترط ان يكتب اسمه . بنائه على تلك النسخة فقبل القوم شرطه وارسل الكتاب الى باريس تكميلاً لنصف الدسنة واصبحت نسخهم ستاً .

روى صاحب كتاب الفهرست ان ابا زكريا يحيى بن عدي النصراني المتوفي ببغداد سنة ٣٦٤ قال انه رأى في تركة ابراهيم بن عبد الله التاتل النصراني كتاب السماع الطبيعى كله وكتاب البرهان لارسطو مشروحين بقلم الاسكندر الافروديسي وعندى قطعة وافرة من (كتاب البرهان) وانهما عرضا عليه بمائة دينار وعشرين ديناراً فغضى يحتال في الدنانير ثم عاد فاصاب القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني (اعجمي من الفرس) بثلاثة آلاف دينار وكانت هذه الكتب مما يحمل في الكم

قال القاضي الاكرم الوزير القفطي المصري بهذه المناسبة في كتابه المترجم بترجم الحكماء المطبوع في لبيك من اعمال المانيا مانص :
 « فانظر الى همة الناس في تحصيل العلوم والاجتهاد في حفظها والله لو حضرت هذه

الكتب المشار اليها في زمننا هذا وعرضت على مدعي علمها ما ادوا فيها عشر معشار

ماذكر» وماذا كان يقول لو سمع الحكاية التي رويتها لكم عن كتاب الصوفي . نعم ان الخراساني اشترى الكتب بثلاثين ضعفاً واما الفرنسيون فاشترى كتاب الصوفي باربعة اضعاف لانهم لم يجدوا في مصر من يذاحمهم كما جرى في بغداد

واقول لكم ان يحيى بن عدي النصراني المذكور كان من اكابر المؤلفين والمترجمين ومحققي الفلاسفة وكان من المغرمن بجمع الكتب ونسخها بيده وكان اوحد دهره ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية . رآه ابن النديم في سوق الوراقين فعاتبه على كثرة نسخه فقال : « من اي شيء تعجب في هذا الوقت . من صبري ؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المشككين مالا يحصى ولعمري بنفسي وانا اكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة . »

ونحن نعلم ان النويري المصري صاحب كتاب نهاية الارب في فنون الادب كان يكتب في اليوم واللييلة ثلاثة كرايس اي ستين ورقة . فلم يبلغ شأن هذا المتقدم مع ان جميع المؤرخين يعجبون بابن وطننا الذي سترون اثره الجامع لكل العلوم والمعارف في السنة المقبلة ان شاء الله

كل هذه الاعمال وهي قطرة من بحر تدلكم على مقدار الغرام بالكتب وانه اذا استولى على العقل فلا يجد المدنف العاشق لذة في شيء آخر . وهذا الزام ليس قاصرا على الشرق او على الغرب بل هو داء مستحكم في نفوس الناس على اختلاف الاوطان والاديان والاجناس

نرجع الى ذكر السرفات في الكتب واروي لكم حادثتين وقعت احدها لرجل من افاضل الاسكندرية وكان للثانية شأن كبير بالجامع الازهر في القاهرة فمن الرجال الذين يحق للاسكندرية ان تفتخر بانها انجبتهم ابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري النحوي الجغرافي الف كتاباً فيما اختلف واثلف من اسماء البقاع وقد ضبطه وافنى في تحصيله وتحقيقه عمره فاحسن فيه كل الاحسان فجاء ابو بكر زين الدين محمد بن موسى الهمداني المشهور بالخازمي المتوفى سنة ٥٨٤ فسطا عليه برمه وادعاه واستجمل الرواة فرواه به على ذلك ياقوت الحموي في صدر معجم البلدان بقوله . « ولقد كنت عند وقوفي على كتابه ارفع قدره من علمه وارى ان مرماه يقتصر عن سهمه الى ان كشف الله من خبيثته وتحمض المحض عن زبدته » اقول انه رغمًا عن هذا التنبيه مازال الكتاب مشهوراً باسم السارق فان صاحب كشف الظنون لم يذكر

غيره وسماه كتاب ما اتفق لفظه واختاف مسماه في الاماكن والبلدان المشتبهة في الخط .
وعلى كل حال فالكتاب لم يصل الينا

واما الحادثة الثانية فقد وقعت بالقاهرة في ختام القرن التاسع للهجرة . وذلك ان
الامام شهاب الدين ابا العباس احمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ الف
في السيرة النبوية كتابه المهور المتداول بيننا الآن وهو « المواهب اللدنية بالمنح
المحمدية » فما راعه بعد ان فرغ من تبليغه في سنة ٨٩٩ الا وقد رفع جلال الدين
السيوطي دعوى عليه امام شيخ الاسلام زكريا الانصاري . وهاك بعض ماورد في
صحيفة الدعوى « انه يسرق من كتبه ويستمد منها وينسب النقل الى نفسه » طالبه
شيخ الاسلام ببيان ما ادعاه . فقال انه نقل عن البيهقي وله عدة مؤلفات فليذكر انه
نقله عنه . ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي فنقله وكان الواجب عليه ان يقول نقل
السيوطي عنه

ماذا كانت النتيجة ؟ انظروا وانجبوا

صدر الحكم على القسطلاني بالترضية اللازمة للسيوطي وازالة ما في خاطره
كيف كان التنفيذ ؟

مشى القسطلاني من القاهرة الى الروضة (جزيرة المنيل) وكان السيوطي معتزلا
عن الناس بها فوصل الى باب ودقه فقبل له من انت ؟ فقال انا القسطلاني جئت اليك
حائياً لطيب خاطرك . فقال له : قد طاب . ولم يفتح له الباب

فأين اين ذلك الزمان مما نحن فيه الآن ؟ افرايتم لو رفع المجني عليهم قضاياهم من
هذا القبيل على السارقين الذين افادوا القسطلاني قولوا لي بربكم هل كانت تكفيها
الحاكم الشرعية والبطريركية والاهلية والمختطة والقنصلية ولجان النفي الاداري ؟
لعمري ان تجار الاحذية كانوا يفلسون كلهم في يوم واحد لو اقتدى السراق بما
فعله القسطلاني !! ولكن التبجح وانتهاك الحرمات وصلا في زماننا الى درجة لامزيد
عليها خصوصاً وان انتشار الطباعة ساعد على نمو هذا الطبع

وتلك الصناعة قد كان لها اصل عند العرب في مصر والاندلس وان كان الاثر
الناطق بذلك قد ذهب من بلادنا ولكن الافرنج حفظوه لنا اثابهم الله عنا خير الثواب
ووقفنا الى اقتفاء خطواتهم في النافع بدلا من تهاكمتنا على تقليدكم في كل ضار
اخبرني الاستاذ الفاضل حفي بك ناصف انه رأى خشة محفوظة بمكتبة وينا

عاصمة النصارى في جملة ما ازدادت به من آثار العرب وثمرات عقولهم وهذه الخشبة منقوشة عليها بالتجويف كتابة عربية مقلوبة على الطريقة المألوفة في اصطناع الاختام وانها كانت مستعملة لطبع الاوامر العسكرية وتوزيعها على الجنود كما هو الشأن في ايامنا هذه في « الغازات العسكرية » وذلك يستفاد من العبارات المنقوشة عليها وهذه الخشبة يرجع عهدها للقواطم وربما نشر صورتها عن قريب بعض علماء المستشرقين فتكون برهاناً على تولد هذا الفن بديار مصر

واما الاندلس فقد ترفت الى ما وراء هذه الخطوة الاولى فقد كان للاندلس في هذا الباب ثلاث خطوات

الاولى انهم قلدوا مصر في عهد القواطم ولكن اثرهم لا يزال باقياً في ديارهم وهما اما اطرفكم بصورة فتوغرافية منه كهدية للعيد السعيد وهي صورة الطابع الذي كان يستعمله اهل الاندلس في مدينة المرية عثروا عليه في اطلالها وخرائبها وهو مصنوع من الخشب والكتابة التي عليه تدل على انه كان مستعملاً في قبسارية المرية ولقطة قبسارية تدل على السوق ولا تزال مستعملة بهذا المعنى في القاهرة وفي كثير من مدن الشرق واصلاً مشق من اسم قبصر كما انه اسم موضوع للدلالة على مدائن كثيرة بآسيا الصغرى منسوبة الى قبصر ولا شك ان هذا الطابع كان مستعملاً بصفة الدفعة (الثقة) التي كانت مستعملة في مصر الى عهد قريب لوضعها على الاقمشة والزنايط في نظير تأدية الرسوم المطلوبة لخزينة الحكومة

كذلك كان ذلك الطابع يوضع على الاقمشة والطرود التي يجب دفع الرسوم عليها قبل دخولها الى السوق اي القبسارية في تلك المدينة مدية المرية كما يستفاد من الكلمات المنكوبة فيه وهي:

واما الخطوة الثانية فهي ان الاشراف على دار الطباعة كانت من خطط الدولة .
بدلكم على ذلك النص العربي الذي نبه اليه العلامة جايانجيس الاسباني وهذا النص وارد في كتاب (الحلل السرا) لابن الابار الاندلسي المشهور وقد طبع العلامة دوزي الهولاندي قطعة وافرة من هذا الكتاب الثمين في مدينة ليدن من سنة ١٨٤٧ الى ١٨٥١ . وانتم تعلمون ان ابن الابار هو الذي ارسله صاحب الاندلس ليستنجد بصاحب تونس . وهو ذلك الرسول الذي وقف بمحضرة ملك تونس وانشده تلك القصيدة الطنانة الرنانة التي تستفز الجبان وبلين لها قلب الجواد . قال في مطلعها :

ادرك بحيلك خيل الله أندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا
 ومحل الشاهد ان ابن الابرار بقول في كتابه المذكور ان عبد الرحمن الناصر الخليفة
 الاكبر (ولى بدر بن احمد الوزارة والحجابة والنيابة والخليل والبرد وكان ينفرد (اي
 بدر) بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يعثها للطابع فتدابع وتخرج اليه فتبعت
 العمال وينفذون على يديه . نعم ان هذا النص سقيم ويحتاج الى تفويم ولا بد من مراجعة
 الاصل ونقويته بنصوص اخرى . وربما كان المراد وضع الطابع عليها . ولكن هذا
 الفرض بعيد لان الطابع على ما تفهم لا يصح وجوده بيد غير الوزير كما هو معروف في
 الدول الاسلامية حتى الى الآن في الباب العالي . ولا يظهر ان ذلك يشير الى اخراج
 نسخ متعددة من مطبعة حجرية لتبليغها الى اهل الولايات ورؤوس الواحات
 اما الخطوة الثالثة النهائية فلما عليها دليل مما اورده لسان الدين ابن الخطيب في كتابه
 المنزه بالاحاطة في اخبار غرناطة قال في ترجمة الشيخ ابي بكر القديسي مانصه :
 ولف كتاب الدرة المكنونة في محاسن اسبطوبه . ولف تأليفا حسنا سيف ترحيل
 الشمس ومتوسطات البحر ومعرفة الاوقات بالانقدام ونظم ارجوزة في شرح ملاسن
 ابن دويدار وارجوزة في شرح كتاب الفصح ورفع الوزير الحكيم كتابا في الخواص
 وصناعة الامدة وآلة طبع الكتاب غريب في معناه)
 هذه العبارة اكتشفها اثنان من علماء الافرنج تمكنا عنها بشرح طوبل في جرنال
 آسيا سنة ١٨٥٢ فأنتم ترون فضل عجم اوربا في البحث والتفتيش عن مآثر العرب . نعم
 انهما ارادا تصحيح العبارة للعربية من حيث استقامة الكلام وتصورا ان فيها بعض
 الالتباس والابهام . فأخذ احدها يصحح الجملة الاخيرة بما ليس له محل من الاعراب
 فقال (كتاب بافي خواص وصناعة وآلة طبع الكتاب غريبا في معناه) ولا يصح
 انابان نهزا بهم بسبب هذا التصحيح العليل السقيم ومافاته من الاعراض اما الجوهر فهو
 انهما اكتشفا هذا البرهان القاطع على ان هذه الصائفة وجدت في ابام العرب ولو من
 باب النظريات العلمية اذ لم تجد لها للآن اثرا عمليا محسوسا ومن المعلوم ان الامدة
 (جمع مدا) تحتاج لتركيب مخصوص لكي تخرج منها نسخا متعددة فلذلك كان المؤلف
 الاندلسي بين صنعتها وبين طبع الكتاب . ولما كان هذا الاستنباط البديع الغريب
 لم يسبق له مثال بالاندلس رأى صاحب الاحاطة وجوب التنبية على فضل الكتاب
 فقال: غريب في معناه

فاين اين ذلك الكتاب الذي الفه القدسي ووصفه لسان الدين ابن الخطيب بأنه
غريب في معناه

لاشك انه ذهب طمعة النار حيثما علت كلمة الاسبانيين وطاردوا المسلمين من تلك
الديار فانهم كانوا كلما وقع لهم كتاب مكتوب بحروف عربية قالوا هذا قرآن وبادروا
لطلب الغفران باحراقه بالنيران وبهذه الكتابة احرقوا تسعة اعشار ونصف وثلاث
وربع وخمس وسدس وسبع وثمان وتسع الكتب العربية فلم يكدهم يخلص اليها منها
واحد في الالف وكانوا يتهاقنون بارتياح وثقوى الى ارتكاب هذه الجريمة الكبرى
وهم يظنون انهم يحسون صنعا حتى ان احد كرادلتهم احرق في يوم واحد بمدينة غرناطة
نحو الف الف كتاب . وكان هذا الصنيع بعمل الايمان

جمهورية البرتغال

من الانقلابات السياسية الاخيرة مناداة الاحرار في مملكة البرتغال بالجمهورية
والفداء الى الملكية فاصبحت هذه الجمهورية ثاني جمهورية في اوربا ومنذ سنين لم يبايع
بجمهورية مهمة في ممالك الارض الا في برازيل فكانت هذه المملكة وكانت في القديم
تحت حكم البرتغاليين بدأت بنزع الملكية فاجبت أمها الاصلية ان لا تنصر عنها في
المطالبة بالحريّة .

نعم تغلب الاحرار او الحزب الجمهوري على المحافظين بعد اضطرابات دامت سنين
اوت الى مقتل الملك كارلوس منذ نحو سنتين وعين ابنه عمانويل خلفا له وها قد هاجر
بلاده في الفتنة الى جبل طارق مخافة ان تتناولها الايدي باذى كما تناولت من قبل اباه .
ولما كانت للبرتغال صلة قديمة بممالك الشرق الاسلامي وحكومات العرب وكان هذا
الانقلاب من الانقلابات التي لها علاقة كبرى بالتاريخ والاجتماع رأينا ان تأتي
بنبذة قليلة من احوالها السياسية والطبيعية عسى تكون منها بعض فائدة فنقول :

البرتغال مملكة في الجنوب الغربي من اوربا يحدها من الجنوب والغرب البحر المحيط
الاتلانتكي او بحر الظلمات ومن الشرق والشمال مملكة اسبانيا ومنها ومن هذه المملكة
تتألف شبه جزيرة ايبيريا وتبلغ مساحتها السطحية ما عدا جزائر آ-ور ومادير ٨٨٩٥٤
كيلومتراً مربعاً وسكانها نحو ستة ملايين وعاصمتها لشبونة

ولا تفصلها عن اسبانيا تخوم طبيعية كما كثير المالك وفيها انهار جارية وجبال عالية واعلى قممها الجبل المسمى رياسكا يبلغ ارتفاعه ١٥٧٨ متراً وحرارة البلاد معتدلة تتجاوز في الصيف في مدينة قلمرية « قويمبرا » ٢١ درجة وامطارها غزيرة في الشتاء قليلة في الصيف وانهارها حسنة جارية في الجملة واعظمها ما ينبع من ارض اسبانيا ومنها ما يجري في ارض البرتغال

واصول سكان هذه البلاد مزيج من عناصر وشعوب كثيرة فمنهم سلبتون وابيريون ولاتينيون وسويقيون وفزيغوتيون وكثير من المغاربة والاسرائيليين وبعض الزوج في لشبونة والكراف تقرأ الى الآن في صفحات البرتغاليين السواد مما يستدل به على كثرة من كانوا يحملون من الزوج الى لشبونة خلال القرن السادس عشر (١٠ الى ١٢ الف زنجي كل سنة) وكثير من اهل برازيل والدين الرسمي في البلاد الكشلكة اما سائر الاديان فالظاهر انها حرة يتسارع مع اهلها

وتعد مملكة البرتغال من الممالك الدستورية وهي وراثية يتناوب الملك فيها ذكورها واناثها وقد نشر دستورها الاول في سنة ١٨٢٦ ثم عدل سنة ١٨٥٢ والقوة التشريعية هي لمجلس الكورتس او مجلس النواب والشيوخ والملك يصدق على ما يقرره ويتألف مجلس الامة من مجلس اعيان ومجلس نواب وعدد الاعيان ٥٢ عضواً وراثياً و١٣ قسيساً و٩٠ عضواً يعينون مدة حياتهم وفي مجلس النواب ١٣٨ منهم سبعة عن المستعمرات ينتخبون من الشعب مباشرة من الاشخاص الذين حصلوا على بعض الرتب او الالقب العلية او ممن لم دخل سنوي يربو على الفى فرنك . وللملك ان يدعو هذا المجلس او يحله وهو يعين رئيس الاعيان ويصدق على تعيين رئيس النواب . والامة تلتخب نوابها مباشرة ولايسوغ للملك ان يتغيب عن المملكة اكثر من ثلاثة اشهر بدون ان يأذن له المجلس والوزارة مؤلفة من وزير الداخلية ووزير المعارف والفنون الجميلة ووزير المالية والعدلية والمذاهب والحربية والبحرية والمستعمرات واخرارية والاشغال العمومية والتجارة والصناعة . وتقسّم البلاد الى احد وعشرين مقاطعة ولكل واحدة عامل يعينه الملك ولكل ولاية مجلس عام انتخابي ولجنة اجرائية

وهذه البلاد زراعية وارضها موزعة كثيراً في الشمال وليست كذلك في الجنوب على ان عدم النظام في تقسيم الاراضي وهجرة السكان اضرت بالبلاد ضرراً بالغا . وام

غلات البلاد الكرم تكاد تكون زراعته عامة ومنه يخرج الخمر الجيد والحبوب تكثر في الشمال كما تكثر الغابات والاشجار المثمرة في الجنوب . وتكثر فيها تربية الماشية ودود الحرير والنحل . ولها موارد عظيمة من الصيد

ومعادن البلاد كثيرة في الجبل ومنها الثمن الا ان الفحم الحجري لا اثر له فيها ويكثر الملح في شواطئها البحرية وفيها عدة بنايع معدنية يستفاد منها اكثر مما تستثمر مناجمها . والسواحل هي المراكز الصناعية في البلاد ومنها اعمال الحديد والآلات الحديدية وصنع السكاكين والمدى والنسيج والغزل والدباغة والتجارة ومعامل القفافيز (الكفوف) والاحذية والدانتلة والمريبات والتبغ وغيره والخدمة العسكرية فيها اجبارية تكون ٢٥ سنة منها ثلاث سنين في الجيش العامل وخمس في الرديف الاول يخدم فيها الجندي شهراً واحداً كل سنة ليتعلم . وتدرت واردات الحكومة في السنة الماضية بنحو ١٥٨٥٥٠٠٠ جنيه ونفقاتها بنحو ١٦٤١٥٧٠٠٠ وبلغ دينها ١٢١٤٦٠٠٠٠٠٠ جنيه و وارداتها زهاء خمسة عشر مليون جنيه وصادراتها نحو نصف ذلك والتعليم الابتدائي اجباري فيها لكنه كما هو في المملكة العثمانية اسم بلا جسم حتى بلغ عدد الاميين فيها منذ عشر سنين ٨٧ في المئة وهو مالا نظير له في مملكة اوربية صغرى وفيها مدارس عالية كثيرة متنوعة وعدد جيشها العامل ٣٠ الفا وتستطيع ان تجند ٢٥٠ الفا ايام الحرب ولها بحرية فيها ٦٠٠٠ ضابط وعسكري

وللبرتغال مستعمرات عظيمة لكنها جزء من مستعمراتها القديمة وكانت البرازيل من جملتها ايام كان للبرتغال القدر المثل في استعمار افريقية وجنوبي آسيا . ويبلغ مجموع مساحة مستعمرات البرتغاليين الآن ٣٤٨٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع فيها نحو عشرين مليون ساكن . فلها جزائر آسور ومادير في المحيط الاطلسي وجزائر الرأس الاخضر وسنغابيا البرفضالية وغبغة والقديس توما وجزيرة الامير في افريقية الغربية ولانكانا وكابندا ثم انكولا وبنكولا وموساميدس . ولها في افريقية الشرقية مملكة موزانبيق وسوفا لا وغيرهما ولها في آسيا من المستعمرات كواو ساليت ودامو وديو واعمالها وماكو ونصف تيمور وكامبنج مما يدل على ان جزائر السوند كان يملكها الملاحون الاول من البرتغاليين وكانت هذه المملكة في القديم جزءاً من لوزيتانيا استعمر الفينيقيون شواطئها ثم استولى عليها الرومان خمسة قرون ونصفاً ونقلت بها الحال حتى اوائل القرن الثامن

للميلاد فاستولى عليها المسلمون وضموها الى مملكة الخلافة ولم يلبث ملوك النصارى في استوريا ان توسعوا في فتوحهم الى جنوبي الجبال وطردهوا المضاربة الى غاليسيا واحتلوا لشبونة سنة ٩٥٣. ومن ذاك العهد نشأ اسم برتغال نسبة لمقاطعة بورتو واشترك البرتغاليون في محاربة المسلمين واجلائهم عن الاندلس وهزموا المسلمين كما يقول لاروس في معجمه في معركة سانتارم (١١٨٤) وساعدوا اهل قشتالة في حرب لاس نافادي تولوزا (١٢١٢) وسالادو (١٣٤٠)

ونشأ للبرتغاليين بفضل عقول امراءها بحرية عظيمة وقام منها سياح عظام منهم الذين اكتشفوا جزائر مادير وكناريا والرأس الاخضر والكونغو ورأس الرجاء الصالح كما وصلوا الى جزائر مالابار والصين والهند واليابان. وتجارة العطور والابازير والافاوية اغنت البرتغال قديماً في الزمن الذي اخذت تفتني فيه ايضاً بالآداب والصناعات. وقد كان لديوان التفتيش الديني فيها كما كان في اسبانيا شأن يذكر وأسس فيها سنة ١٥٢٦. وكان من وفاة ملكها المدون سباستيان في وقعة القصر الكبير ان دخلت المملكة في يد فيليب الثاني ملك اسبانيا الا انها حاولت ان تخلص منه اما هو فجعل بلادهم خديوية قشتالية ومنعهم من الاتجار مع شذاد الآفاق من اهل بلاد القاع (هولاندة) فاخذ هؤلاء يجلبون الابازير والافاوية ثرواً من بلاد الشرق وانكسر الاسطول البرتغالي سنة ١٦٠١ في بانتم من اعمال جادة واستولى الهولنديون على جزائر السوند وبنوا باناوبا وحلوا في سيام وسيلان واليابان وعلى شواطئ غينة وغويان

وفي سنة ١٦٤٠ انتقض اقليم كاثالونيا على صاحب اسبانيا فنزعت البرتغال بدها من الحكم الاسباني وبايعت دوك بارا كانس ملكاً عليها فلما لمت المملكة البرتغالية شعنها حاربت اسبانيا خمساً وعشرين سنة واستعادت بعض مستعمراتها الا انها تركت بومباي للانكليز سنة ١٦٦١ وفي الربع الاول من القرن التاسع عشر انفصلت برازيل عنها. واذ مالت برتغال الى انكثرة اكثر من فرنسا لم تساعدها هذه في ازماتها السياسية وقد قامت في القرن الماضي باصلاحات اقتصادية مهمة منها وضع اصول «الكاداستر» على الاراضي والغاء الرقيق من المستعمرات وابتياح املاك الرهبان وتمديد الخطوط الحديدية واصلاح اصول المالية

والدليل على ان المسلمين حكموا تلك البلاد مدة سريان الفاظ كثيرة الى لغتهم من العربية وهي اقل مما في لغة اهل قشتالة وقد ألف دوزي المستشرق الهولندي كتاباً في

الافاظ التي اخذتها البرتغالية والاسبانية من اللغة العربية و يبلغ عدد المتكلمين بالبرتغالية في برتغال و برازيل و جزائر الرأس الاخضر وغيرها من المستعمرات البرتغالية في المحيطين والهند الصينية نحو عشرين مليون

وكانت هذه البلاد جزءاً من الاندلس و يطلق عليها اسم البرتغال "Portugal" وهذا هو اسمها في كتب العرب لايورثغال او بغير او وعاصمتها Lisbonne التي يذكرها العرب باسم لشبونة واشبونة والاشبونة "Cintra" ولا تزال في مدينة شنترة حصون العرب على قمم الجبال وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن فيه القوم عظاماً وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين او للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذي كانت تسكنه العرب في لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة لابتشديد الميم ويسميه البرتغاليون الآن من باب التحريف الفاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية

ومن امهات مدن البرتغال مدينة كويمبرا Coimbra المعروفة في كتب العرب باسم قلمرية وهي الآن دار العلم ومحط المعارف في بلاد البرتغال . ومنها مدينة بورتو Porto واسمها في كتب العرب برتغال وبها يسمى هذا القطر برتغال كما نقول نحن الآن طرابلس وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بني سويف وبندرها بني سويف والقيوم وبندرها القيوم والمينا وبندرها المينا وهكذا في اسبوط و قنا

وفي مدينة البرتغال هذه آثار كثيرة ولكن العرب لم يختلفوا فيها شيئاً يذكر لانهم كانوا يجيئونها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم توسع فيها قدمهم وقد تألف التجار على انشاء دار البورصة على الطراز العربي ونفثوا الكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربي وزينوه بالزخارف وكتبوا في ضمن رسومها البديعة اشعاراً عربية وفي جميع الطرازات هذه العبارة (عن لالانا السلطانة مريم ٢) يريدون عن مولانا السلطانة مريم الثانية اه .

(١) السفر الى المؤتمر لاحمد بك زكي (٢) قال المقرري في تفح الطيب واما غرب الاندلس ففيه اشيلية وماردة واشبونة وشلب فمن اعمال اشيلية شريش والخضرء ولبله وغيرها ومن اعمال ماردة بطليوس وبابرة وغيرها ومن اعمال اشبونة شنترين وغيرها ومن اعمال شلب شنت رية وغيرها

اما القول بان العرب كانوا يجيئون البلاد فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها فمسألة فيها نظر بعد ان قال ياقوت ان شنترية ملكها الافرنج (اي من المسلمين) سنة ٥٤٣ ونسب اليها قوم من اهل العلم ولا يخرج من دولة علماء الا اذا رسمت اقدام حكومتها في البلاد . وقال في شنترين انها مدينة متصلة الاعمال باعمال باجة في غربي الاندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر تاجه قريب من انصابه في البحر المحيط وهي حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوما ويدها وبين باجة اربعة ايام وهي الآن للافرنج ملكت سنة ٥٤٣

وقال في قرطبة « بضم اوله وثانيه وسكون الميم وكسر الراء وتخفيف الياء » مدينة بالاندلس وهي اليوم بيد الافرنج . وفي لشبونة ويقال لها اشبونة بالالف وهي مدينة بالاندلس متصل عملها باعمال شنترين وهي مدينة قديمة قريبة من البحر غربي قرطبة وفي جبالها البزاة الخالص ولعسلها فضل على كل عدل الذي بالاندلس يسمى اللاذرني يشبه السكر بحيث انه يلف في خرقه فلا يلوشا وهي مبنية على نهر تاجه والبحر قريب منها وبها معدن التبر الخالص وبوجد بساحلها العنبر الفائق وقد ملكها الافرنج في سنة ٥٧٣ وهي فيما احسب في ايديهم الى الآن .

واصرح من هذا ما قاله المراكشي ^(١) قال وفي الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشرط ووبذ وابلة وشقوية هذه كلها يملكها الادقش وتسمى هذه الجهة قشتالة وتجاور هذه المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة ايضا وهي سمورة وشلنكة والسبطاط وقرطبة هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسمى هذه الجهة ليون وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الاعظم اقبانس مدن ايضا منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترية وشنياقو ومدينة بايرة ومدن كثيرة ذهبت عني اسمائها يملكها رجل يعرف بابن الريق

وذكر في سيرة ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن انه خرج سنة ٥٧٩ قاصدا غزو الاندلس قال : فقصدم مدينة شنترين اعادها الله للمسلمين وهذه المدينة اعني شنترين بمغرب الاندلس وهي من امنع المدائن يملكها وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ملك من ملوك النصراري يعرف بابن الريق وقد فصل ما وقع بينهما من الهزائم وكيف خرج ابو يعقوب وحمل في محفة وكيف هرب ابو الحسن الملقب الذي كان سبب هزيمة

(١) المعجب في تلخيص اخبار المغرب

المسلمين الى مملكة ابن الربيق فأواه صاحبها واكمه الى ان بدا له من سوء رأيه ان يكتب كتاباً الى الموحدين يستعطفهم وادرج في ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة فاطلع الرجل الموكل به وكان يعرف العربية سرّاً فقبض عليه فشاور ابن الربيق قسيسيه في امره فاشاروا عليه باحراقه فخرقه

وذكر المراكشي انه كان يملك الثغر الذي من الجهة الشمالية من الاندلس (بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها) وبعض المدن المجاورة للبحر الاعظم ابن الانطس المتلقب بالمظفر ثم كان له ابن اسمه عمر يكنى ابا محمد تلقب بالمتوكل على الله كان يملك بطليوس واعمالها وبابرة وشترين والاشبونة قال : اتصلت بمملكته الى ان قتل المرابطون اصحاب يوسف بن تاشفين ابنه المتوكل سنة ٤٨٥ وكانت ايام بني المظفر بمغرب الاندلس اعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لاهل الآداب وفيهم يقول ذو الوزارتين ابو محمد عبد المجيد بن عبدون من اهل مدينة بابرة قصيدته المشهورة التي مطلعها :

الدمر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الاشباح والصور

وبهذا علمت ان العرب استولوا على برتقال مدة لا تقل عن مائة وخمسين سنة فنبغ فيها رجال منهم وخلفوا آثاراً لا تزال شاهدة بفضل تقدمهم في العمران وان هذه المملكة التي انقطعت الآن بينها وبيننا انواع الصلات كانت من جملة ممالك الشرق وان كانت غربية وان لسانها اقتبس من لساننا وان التعصب الدميم الذي تم على يد الفساوسة منذ القديم كان من المعجلات في نزع الملكية وقيام الجمهورية الآن

وقد كان اول عمل للجمهور بين طرد جماعة اليسوعيين من بلادهم واستصفاة الاديار والقضاء على الزهبان والرايات لانهم لم ينسوا بعد مسعى رجال الدين في مقتل فرر رجل الاسبان الحر في العام المنصرم قتلوه بواسطة الحكومة على اشع صورة عرفت في عصر النور والمدنية فلما ظفر الاحرار بالمحافظين قضوا القضاء المبرم عليهم وعلى ثقاليدهم ليعرفوهم ويعرفوا الحكومات التي تعتمد الى الشدة في معاملة امتها ان الناس لا يحكمون الا باستمالة القلوب وان القوة اذا خيب منها زمناً فقد ياتي آخر يستهين بها اهله فيستيتون ويستسلون

والضغط لا يزيد النفوس الاية الامضاء . وهكذا أهين رجال الدين ولا سيما اليسوعيون وطردوا او كادوا من البرتغال كما طردوا من فرنسا من قبل وحرّم عليهم دخول سويسرا وتوشك سلطتهم ان تنزع ع ايضاً في اسبانيا لما ختمتها ارض برتقال واذا صحت

عزيمه البلادين المتجاورين عَلَى انشاء مملكة واحدة كما هو فكر بعض الخاصة هناك تصبح
جمهورية اسبانيا والبرتغال واحر بها ان تسمى جمهورية ايبيريا من الحكومات القوية
ذات الشأن العظيم ، وربك يفعل ما يشاء ويختار

رحلة الى قلمون الاسفل^(١)

عَلَى اربع ساعات من شمالي دمشق واد منبسط بين جبلين متسامتين طوله من سفح
ثنية العقاب الى مزرعة الناصرية لا يقل عن ست ساعات وعرضه ساعتان تربته
يضاها ورباعه مخصصة ومياهه وفيرة بحيث لو حفرنا عشرة اذرع او اكثر ينبت الماء
غزيرا مع ان الجبلين المتناولين من شمال الوادي وجنوبه لاشجر فيهما ولا غابة تزيينهما .
ولو كنا مغروسين بالسنديان والزان والبلوط والشوح لكان هذا الوادي بامطاره الغزيرة
وربه المتواصل اشبه باخصب السهول السندسية ولذا كان جبل قلمون ضعيفا بربه وان
لم يكن كذلك يزكاه تربته . والعالي والاسفل او التحتاني منه متشابهان وان كانت سهوله
اخصب من آكله وتلعائه ومياه الاعالي اعذب من مياه الاسفل . وفي قلمون الاسفل
من القرى الامهات ما يطلق عَلَى امثاله في ديار الغرب اسم بلدة وذلك مثل الرحبية وجيرود
والعظمية والقطيقة وضمر وكلها ذات تاريخ قديم وعمران طبيعي وهي بكثرة نفوسها
يزيد عمرانها اليوم كما انبسط ظل السلام فيها وامن اهلها عَلَى مواشيهم من غارات اشقياء
الصفاء وجبل الدروز المجاورين لهم من جهة الجنوب والجنوب الشرقي عَلَى مسيرة يوم من
هذه البلاد

ولقد كان عرب الصفاء واللجاة وجبل حوران يغزون منذ سنين اهل قرى قلمون
الاسفل في غنم دارهم ويرعون زروعهم وينهبون ناطقهم وصامتهم ولذلك ضعف عمران
تلك الديار حتى عَلَى قيد غلوة من القصبات والدمساكر فاصبحت الاقليل مزارع حقيرة
ومداشر . وقت الاشجار فيها حتى في ضواحي القرى وعلى شواطئ الجداول والانهار
لان الفلاح اصبح لا يفكر الا في رزق سنته فاذا نجاعه من شرور النهب فهو سعيد آمن
والا فيقضى عليه ان يعيش في فقر ليس بعده فقر وذلة هي الموت بعينها او يهيم على وجهه
الى اقليم آخر يكون اقرب الى الامن والامان يطلب معاشه بالعمل مأجورا وكان

يستطيع ان يعيش اميراً من ارض اورثه اباها آباؤه واجداده لو كان له حكومة تفكر فيه وتدفع عنه بوائق الضرر وعواديته وتعرف ان انتقاضه اياه من الضرائب والاناوات ليس الاتعنه

ومن الغريب ان الامن ما كاد يرفع رواقه في هذه الديار وتنظم اصول الادارة بالنسبة لما كانت عليه في القرن الماضي مثلاً حتى سرت الى الاهلين هنا نفمة الهجرة الى اميركا فقد هذا الجبل بمن هجره شقياً وكان يسعد بهم لو توفروا على خدمة ارضه واستثمار شجره واستنبات غلاته وتعيين مناجمه والعمل لاستبحار عمرانه ولا يقل عدد المهاجرين من هذا الوادي عن خمسمائة من اصل نحو عشرين الف نسمة وكل يوم يزيد نازحهم وقلاً يعود احد منهم . يذهب الثبان الاقوياء ويبقى في الاكثر الاطفال والكهول والشيوخ حتى كادت تسوء الظنون في مستقبل هذه البلاد وهي اذا لم توفق الى النهوض بنشاط شبانها هيئات ان تعمر بتكاسل شيوخها وكهولها وخمولهم .

قلنا تعدين مناجمها لان جبالاً من مثل هذه لا تخلو من مناجم فاذا كانت بقعة واحدة وهي جبرود^(١) وما اليها تحتوي في جملة ما تحتوي من الغلات والثروات على اربعة اصناف من العناصر التي نقل او لا توجد في غيرها فبالك لوبحث في قرى هذا الجبل وحده عما يكد صدره من الخيرات الطبيعية .

نعم في جوار جبرود على مسافة ساعة منها المملحة التي يصدر منها الملح الجيد للطعام وتكفي الوف القناطير التي يمكن استخراجها من سورية باجمعا ولذلك بكتفي باستخراج كمية قليلة منه لان في جوار تدمر وحماة وصفد ومملحات اخرى ينفع بملحها دواع عنك ما في سائر الاقطار العثمانية من هذا الجزء المفيد

وبالقرب من المملحة معدن الجبس او الجبصين يتبشونه من الارض قطعاً مستطيلة بطول شبر او شبرين وعرض ثلاثة اصابع وثخن اصبعين يستخرج العامل القنطار الشامي منه بسبعة قروش وقد لا يستخرج قنطاراً منه في اليوم الواحد فيأخذ ضامن من ادارة الغابات والمعادن ويجعله في تنور كبير يحرقه وعندها يستعمل الى جبس يدخل في الابنية والتبليط والتوافذ وغير ذلك

هذان هما المعدنان اما النباتات فهما نبات القلي او الاشنان يقطعونه ويجمعونه في

(١) في معجم البلدان جبرود بدون ياء وقال انها من اقليم معلولا من اعمال غوطة دمشق ولعلها كانت تابعة لغوطة

حفر يوقدون فيها النار فيستحيل الى قلمي . ومن شواطئ المماعة التي لا يقل طولها عن ساعتين وعرضها عن ساعة يبت السل او قش الحصر وهذا النش يخرج في بقاع اخرى ولكن احسن القش ماخرج من جبرود ولذلك ترى كل حصري في دمشق يحرق على ان ينسج حصره من قش جبرود لثانته ورواته

فبلاد هذا بعض مغلفا الطبيعي خصت بركاء المنيب وجمال الطبيعة تخرج منها الجوب على انواعها والثار على اختلاف اشكالها ثم يظل اهلبا في جهالة على قريهم من دمشق ام المدن السورية بل عاصمة هذه البلاد العربية وذلك لقلة المواصلات بينهم وبينها ولان الحكومة لا يهتمها الا ان تأخذ من اهلبا حقوقها ولا تقوم بما يجب عليها لهم من الحقوق

ولو كان الاهالي في قلمون والمرج والغوطة يفكرون في مستقبل بلادهم حق التفكير ويعجبون ان يبق اولادهم لهم لا ان يربوهم لينزحوا الى اميركاو ينشئتوا في البلاد لطلبوا من الحكومة امتياز سكة حديدية ضيقة كالمعروفة في مصر بالسكك الحديدية الزراعية وبذلك تصدر الصادرات على اسر وجه وتساوى في الابعاد القري الفاصية والدانية .

بالسكك الزراعية أحبي موات مصر وقربت مسافاتها والتحمت اجزاؤها واذا كان يتعذر الآن ربط دمشق ببغداد بسكة حديدية تحتاز الغوطة والمرج وقلمون والقريتين وتدمر الى العراق لاختلاف المصالح السياسية فلا اقل من ان يقوم اغنياء دمشق وهذه الاقاليم بنشئون سكة ضيقة تصل بين هذه القصباب بوصلة العمران في الغوطة من امهات القري مثل دومة وعرييل وجوبر وسنبا وفي المرج مثل ضمير وعنية وغذراء وفي قلمون مثل يبرود ودير عطية وقارة والنبك وجبرود والرحيبة والقטיפيعة وغيرها مايجدر بارباب الاموال ان يتديروه ويضموا اثنتا هذه الاجزاء المتفرقة التي لا تجدد بينها طريقا معبدا ولا يريدا ولا سلكا برقا ولا طبيا ولا صيدليا ولا كاتبيا ولا حاسبيا بل تجدد فيها الناس يعيشون بعيدين عن محيطهم لا يعرفون عنه اكثر مما يعرف ابن السودان عن سكان راكش في حين ترى المسافات قريية وابعد قرية عن الفيحاء لا تبعد مائة كيلومتر او يوما وبعض يوم على ظهور المظايا

مثال ذلك اننا قصدنا الى هذا الجبل يوم وقفة عيد الصغير فكان الفلاحون يسألوننا كما وقفنا ليرجع مركباتنا فيما اذا كان ذلك اليوم من رمضان او انه رومي هلال العيد

وثبت في دمشق اما من كنا نسألم عن اثنتي جبل الدروز فكانوا لا يعرفون من امرها الا ان الحكومة جيشت جيشاً عليهم ولا يعرفون ما تبع ذلك من تأديب الدروز على حين هم احق الناس بالفرح بهزيمة الاشقياء لانتشار ظل الامن في تلك الربوع ولا نهم طالما تأذوا بهم ونهبت مواشيهم وقتل رعاتهم وزراعتهم .

ولاسبيل الى عمران هذه البلاد الا بالان والعلم فمن جملة اسباب الامن مد الخطوط الحديدية الزراعية التي نقل نفقاتها وتكثر فوائدها المادية والمعنوية فتضاعف اثار الاراضي هنا كما يتضاعف دخلها وتكثر اشجارها ومواشيها والعلم لا ينتشر الا اذا هب اعيان البلاد وعقلواوها الى انشاء مدارس لابنائهم خاصة تجرّب على غير الخطة التي يسيرها عليها ديوان المعارف . تسير في التعليم على طريقة يتعلم بها الفلاحون لغتهم فقط بحيث يقرؤن ويكتبون فيها في الجملة ويعرفون المبادئ الاولى من الحساب والطبيعة والنبات والحيوان وشيئاً من تربية المواشي وحفظ الصحة والرياضة البدنية واصول الدين . يعلمون كل ذلك بالعمل اكثر من النظر .

فلو قامت في كل قرية من قرى قلمون مدرسة ابتدائية كالتي اناها سيف جبرود كبيرها محمد باشا الجبرودي ووقف عليها بستائاً فيه صنوف الثمار لا يقل ريعه السنوي عن عشرة آلاف قرش لاصبح قلمون بعد عشرين سنة ارقى جبال سورية لما فطر عليه اهله من الكد والنشاط .

نعم استحق الزعيم المنوه به كل شكر لانه جرى على غير سنة كبرائنا في السخاء فكان فيما نظن ثاني رجل في هذا القرن الرابع عشر وقف على العلم في سورية مثل هذا الملك الذي لا يقل ثمنه الآن عن ثلاثة آلاف ليرة . والرجل الاول هو فيا نذكر محمد باشا المحمد من امراء عكار وقف على مدرسة دينية هناك ما يكفيها . اما سائر اعياننا واغنيائنا فلم يوقفوا الا قليلا الى وقف مابوليهم في دنياهم واخراجهم نفراً وذخراً ولعل اعيان هذه البلاد من الاسر العريقة سيف المجد تقدم بعد الآن بين يدي نجواها من البذل للعلم ما تقربه العين فيجدون في ذلك حذو اغنياء الاقاليم في مصر الذي نهضوا بها ومسا انشؤهم لفلاحيتهم من الكتائب في بضع سنين مالا تنهض به امة تنتظر من حكومتها ان تعلمها في قرن او قرنين . وليت شعري متى تنهض من دمشق نفحة من تلك الروح التي انبعثت في القاهرة ففاضت على اقاليم مصر فاحيتها حتى يكون حظ المصريين واحداً في النهوض اليوم كما كان كذلك في القرون الوسطى .

مخطوطات ومطبوعات

كتاب المثنى

قال ابن ساعد^(١): ان علم اللغة هو نقل الالفاظ الدالة على المعاني المفردة وضبطها وتمييز الخاص بذلك اللسان من الدخيل فيه وتفصيل مايدل فيه على الدوات بما يدل على الاحداث وما يدل على الادوات وبيان مايدل على اجناس الاشياء وانواعها واصنافها مما يدل على الاشخاص وبيان الالفاظ المتباينة والمترادفة والمشتركة والمنشابهة . ومنفعة الاحاطة بهذه المعلومات خبراً طلاقة العبارة والتفكك من التفتن في الكلام وايضاح المعاني بالالفاظ الفصيحة والاقوال البليغة .

ولقد طبعت كتب كثيرة في اللغة ولا يزال يظفر باشياء لم يكتب لها الظهور وبواقع النما من مكتبة احد علماء هذه الحاضرة نسخة من كتاب المثنى تأليف حجة العرب ابي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي الذي ذكره السيوطي في بغية الوعاة فقال انه عبد الواحد علي ابو الطيب اللغوي الحلبي الامام الاوحد .

قال في البلغة له التصانيف الجليلة منها مراتب النحويين ، اطياف الاتباع ، الابدال ، شجر الدر ، وقد ضاع اكثر مقالاته وكانت بينه وبين ابن خالويه مناقشة مات بعد الخمسين وثلاثمائة . وقال الصفدي : احد العلماء المبرزين لعملي اللغة والعربية اخذ عن ابي عمر الزاهد ومحمد بن يحيى الصولي واصله من عسكر مكرم قدم حلب واقام بها الى ان قتل في دخول المستنق حلب سنة احدى وخمسين وثلاثمائة .

وكتابه هذا في ١٣٠ ورقة اكبر من الربع عليه حواش وتعليقات مفيدة كتب علي الحاشية ان اكثرها بقلم ابن الشحنة وابن مكثوم القيسي تليد ابي حيان وفيه نقص من وسطه ونقص قليل من آخره الا انه لايجوز دون الانتفاع منه لان النسخة قديمة على ماينظر وهي حسنة الخط بالشكل الكامل والصحة غالباً عليها بحيث يسهل تمثيلها بالطبع دون الرجوع الى الامهات لتصحيح الفاظها واثبت الروايات المعتمدة في ضبطها وليس في الكتاب تاريخ نسخه ويرجح انها كتبت في القرن السابع او الثامن .

جاء في مقدمته ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على محمد النبي وعلى آل

(١) هو شمس الدين محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري السجاري المتوفى

سنة ٧٤٩ صاحب كتاب ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد

محمد . قال ابو الطيب عبد الواحد بن علي اللنوي : انه ليس شي من كتبنا وان قصرت ابوابه وقلت اوراقه وضممت حجمه وصغر جسمه باقل فائدة في معناه للتعلم ولا انزاع عائدة في مغزاه على المتفهم من غيره وان اسبغنا فيه واغرقنا في معانيه حتى طارت اصوله وانشرحت فصوله بل كل واحد بمحمد الله على غاية ما يمكننا من الكمال فيما اقتصرنا به عليه ونهاية التمام فيما انتهينا به اليه وما من شي توخينا من ذلك ولا تعمدها الا لغرض في الاقحام تخريجه وحرص على الاعلام الذي اردناه وكل من الله سبحانه وبه . فاذا كانت بغيتنا فيما نعلمه وارادتنا فيما نعيده ونبدى معونة اللحن المستفيد والتقريب على ذي النهم البعيد والحاق الكهام البليد بالدكي الحديد وكان ذلك لوجه الله خالصاً موفوراً لا نريد به جزاء ولا شكوراً فانا غير قائلين من تفضله جل اسمه علينا بالارشاد وتوفيقه ايانا للسداد والله عندئذ نعبده وكافل لمن استرشده برشده ولا قوة الا بالله . ونحن قاصدون في كتابنا هذا قصد ماورد من كلام العرب مشى في الاستعمال ثنية لازمة ومبتدئون بشرح وجوهه وتقصيها وذكر ضرورتها توسعهم فيها فنقول ان جميع ماورد على ذلك من الاسماء عشرة اصناف الاثنان غلب احدهما على امم صاحبه الاثنان جمعهما في التثنية اتفاق اسميهما الاثنان غلب نعت احدهما على نعت صاحبه الاثنان جمعاً في التثنية لاتفاق نعتيهما الاثنان غلب عليهما لقب واحد منهما الاثنان يجمعهما لقب واحد الاثنان ثانياً باسم اب او جد او احدهما ابن الآخر فغلب اسم الاب الاثنان اللذان لا يفردان من لفظهما الاثنان في اللفظ يراد بهما واحد الاثنان يثنيان وان اكتفي باحدهما لم ينقص المعنى واما ماورد من ذلك من الافعال فنصنفان من الفعل المبني على صيغة التثنية والمراد به تكرير الفعل . الفعل يجي لفظه لاثنين ومعناه لواحد ونحن نبوب هذه الابواب ونأقي على ما فيها او جمهوره ان شاء الله .

« هذا باب الاثنين غلب اسم احدهما على امم صاحبه قال الاصمعي وابو عبيدة قولهم سار في الناس سيرة العمرين انما يريدون ابا بكر وعمر رضي الله عنهما وقال الثراء نحو ذلك وسمع معاذاً الهراء يقول لقد قيل ستة العمرين قبل عمر بن عبد العزيز وجاء في حديث انهم قالوا لعثمان رضي الله عنه نطلب منك سيرة العمرين فهذا يدل على صحة ماقلنا »

وهنا اخذ المؤلف بورد الامثلة في هذا الباب مثل الخنفتان والزهدمان والنجيران والعبدان والعبدان والعقامان والنافعان والشريفان والعشاءان والامقسان

والقربان والقمران والمربدان والطلحيتان وإبانان والنيران والمشرقان والضميران
والدحرضان والكيران والمروسلان والصباحان والبصرتان والغدون والمطران . وشرحها
شرحاً موجزاً واستشهد لها بكلام العرب وأورد في باب الثنية لاتفاق اسميهما السعدان
لسعد بن زيد مناة بن تميم وسعد بن ملك بن زيد مناة بن تميم والمروان لمرو الههجان
ومرو الروذ . والفرقدان والقطبان والناظران والوريدان والاجدلان والذراعان
والمسجدان قال بعد الامثلة الكثيرة وهذا باب يفوت الاحصاء ويدخل فيه الاذنان
والعينان والجبينان والحاجبان والغدان والوجبتان والليحيان والعارضان وما اشبه ذلك
وقال في باب الاثنين غالب نعت احدهما على نعت صاحبه مثل الاسمران الخبز والماء
والاسودان التمر والماء والاخضران البحر والليل والايضان الخبز والماء والباكران الصبح
والمساء ويقال لها الرانحان والايضان الشحم . الشباب . وقال في باب الاثنين جمعاً في الثنية
وأورد لفظ الاقهبان القبل والجاموس الاحمران النحر واللحم والاصفران والاسودان
والازهران والايهمان والاعميان والاطيبان والاختبان الخ .

واقى على هذا النحو من تفصيل الابواب تفصيلاً حسناً وشرحها شرحاً احسن
وقال في الاتباع الذي اوله الالف : قال ابومالك تقول العرب في صفة انثى بالبدنة
انه لشديد اديد وهو من الاد والأد القوة الا ان الاديد لا يفرد قل الراجز
نضوت عني شرة وادا من بعد ما كنت حملاً نهدا
ويقال جيء به من عيصك وآيصك اين من حيث كان ولم يكن فالعيص الاصل
والايص اتباع الخ

وقال في الاتباع الذي اوله الباء يقال انه لحسن بسن وانه لكثير بشير وانه لقليل
بليل الخ وقال في التوكيد الذي اوله الباء : يقال فروله بصيص واصيص وبصيص
من الفرع وكله بمعنى الصوت الضعيف ويقال انه اغض بض وغاض باض وهي الغضاضة
والبضاضة قال ابو زيد والبضاضة رقة البشرة وقال الاصمعي هي رقة البشرة والبياض
وقال ابو زيد قد يكون الاسم بضاً ويقال انه لسر بر سار بار وانهم لسارون بارون
وسرون برون قال الشاعر

اخوة ماتت سرون برون فان غبت فالذئاب الجبياع

وهكذا اتى بباب الاتباع على حروف المعجم فاستوفاه ولم نعث في شيء من كتب اللغة
المطبوعة على اكثر استيفاء لهذا المبحث من هنا . وفي آخر هذا الفصل البدع انتهى

بحسب الظاهر الكتاب . وجاءت بعده قطعة أخرى في اللغة على تلك الشاكلة ولكنها
تكاد تتجاوز ثلاثة أرباع الكتاب فمن أمثله : الباء والشين يقال ارب على القوم وارش
عليهم اذا حمل عليهم ووشى بهم وهو يورب على القوم تأريبا ويورش تأريشا ويقال
غلام بلبل وشلل اذا كان خفيفا ظريفا . وقال في الباء والفاء : ابو زيد يقال خذه
باباته وخذه بافاته اي بزمانه وحينه وانشد

فهلا بافان وفي الدهر غرة تزور وفي الايام عنك عقول
وعلى هذه الصورة كانت سياقة هذه الابواب المفيدة ولها نظائر من كتب اللغة
المطبوعة

وهالك نموذج آخر : الجيم والقاف قال الاصمعي : يقال لكل ذي حانوت كرايج
وكريق والكريع والكريق ايضا اسم الحانوت وهو فارسي معرب وسئل عن كثير
فقال كان كريجا قال ابو حاتم يعني صاحب حانوت ويقال هو الغالوزج والغالوزق
واعطاني من الشعير او الحنطة كيلجة وكيلفة . ابو عمرو يقال انه لحسن الجسم وحسن
القسم يعني واحد والقسم هو الجسم بعينه وانشد

طبيخ نخاز او طبيخ امية دقيق العظام سي^٤ القسم املط
ويقال انباجت عليهم بايجة من الدهر وانباقت عليهم بايقة وهي البوايج والبوايق اي
الشدائد والدواهي قال الشاعر وهو الشماخ يرثي عمر رضي الله عنه
قضيت امورا ثم غادرت بعدها بوايج سفي اكمامها لم تفتق
وفي الحديث لن يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوايقه اي دواحيه قال ابن احرر
اخاف بوايقا تسري اليها من الاشباع سرا او جهازا
ومن الامثلة الكثيرة ماورد في « العين والنون » الاصمعي يقال اعطيت . اعطائه
وانطيت اظلي . انطاء بمعنى واحد ومنه قول الاعشى

جبادك في القيط في نعمة تصان الجلال وتنطا الشعيرا

والدعفس والدنفص من الرجال الزري المنظر القمي^٥ ويقال غسل الذئب يغسل
عسلانا ونسل ينسل نسلانا وهو ضرب من المشي تضطرب فيه متناه وفي التنزيل : فاذا
هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وشكا عمرو بن معدى كرب الى عمر بن الخطاب رحمة
الله عليه المعص فقال : كذب عليك العسل اي عليك بالعدو قال الشاعر :
عسلان الذئب امسى قارباً يرد الليل عليه ففسل

وهكذا تجد الكتاب من اوله الى آخره سلسلة فوائده اغوية حرة بالتدبير والاستظهار ولواقع المجال لاكثرنا من الامثلة وفيما اوردهنا مقنع فحسب ان تصح عنمة بعض الطابعين والمؤلفين على نشره ليضاف الى المجموعة اللطيفة التي طبعت مؤخراً من كتب اللغة مثل كتاب فقه اللغة للشعالي والالفاظ الكتابية للهمداني وتهذيب الالفاظ لابن السكيت والنوادر لابي زيد والاضداد لابن بشار الانباري والفصيح لثعلب وذيله للبغدادي وفصيح اللغة للهروي وفعلت وأفعلت للزجاج ومبادئ اللغة للاسكافي واساس البلاغة للزحشري والمقصود والممدود لابن ولاد وغير ذلك من المختصرات والمطولات كرسائل الدارات، للاصمعي ورأس تلك الكتب الممتعة المخصصة لابن سيدة المطبوع والمحكم له الذي يرحى طبعه عما قريب.

٤١٩ اعمال الاعلام

فيمن يوبع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجير ذلك من شجون الكلام تأليف لسان الدين ابن الخطيب طبع في بلرم صقلية سنة ١٩١٠ ص ٦٨ احتفل علماء الطليان في المشرقيات بمرور مئة سنة على مولد ميشل آماري المستشرق الايطالي الذي صرف حياته كلها في درس التاريخ الاسلامي ولا سيما ما كان متعلقاً منه بجزيرة صقلية التي دانت للمسلمين زماناً طويلاً فوضعوا لذلك كتاباً اتى كل واحد بنسبة تاريخية واجتماعية نشرها . ومن جملة ما نشر هذا الجزء من تاريخ ابن الخطيب . نشره حسن حسني افندي عبد الوهاب استاذ التاريخ في المدرسة الخلدونية بتونس بدعوة من صديقه الاستاذ ناينو الايطالي ومكافأة لذكرى من خدم الاسلام والمسلمين في اوربا طول حياته وقد علق الناشر بالافرنسية شروحات وحواشي على هذا الجزء تدل على بعد غوره وتدقيقه على اسلوب الاوربيين . وللكتاب مناسبة كبرى بتاريخ شمالي افريقية وصقلية والاندلس وفيه ذكر من ولي الملك بصقلية قال لسان الدين في وصفها : قال ابو محمد الرشاشي : صقلية جزيرة كبيرة وصقلية اسم لاحدى مدنها الكثيرة وقلاعها الاثيرة وطولها مسيرة خمسة ايام وهي في البحر الشامي موازية لبحر بلاد افريقية واقرب المواضع اليها من بلاد افريقية رأس اذار بينهما مجرى يوم وتوازى من الجهة الاخرى ارض الروم الكبيرة وافتتحت في اثني عشرة ومائتين وكانوا قبل ذلك معاهدين ولانفتاحها خبر شهير . وقال ابو الحسن ابن جبير في رحلته يصف مدينة مسينة واخبار ملوكها : هذه المدينة موم تجار الكفار ومقصد جواري

البحر من جميع الافطار كثيرة الارفاق برخاء الاسعار مظلة بالكفر لا يقر فيها للمسلمين قرار اسواقها دافئة خفيفة وارزاقها واسعة بارغاد العيش كفيفة لانزال بها ايلك ونهارك في امان وان كنت غريب الوجه واليد واللسان وذكر بعد مدينة مسينة المدينة المعروفة بيلارمة فقال فيها سكنى الحضرم من المسلمين ولم فيها المساجد والاسواق المختصة بهم والارياض وسائر المسلمين بضباعها وجميع قراها ومدنها كسرقوسة وغيرها وبهذه المدينة سكنى ملكها غلام وشأنه عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وهو كثير الثقة بهم وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله ومنهم وزراءه وحجابه وهم اهل دولته المرتسمون بخاشته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم في الملابس الفاخرة والمراكب الفارعة ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقة وهو كثير الانخاذ للقيان والجواري وليس في جميع ملوك الرومية اشرف منه في الملك ولا انعم ولا ارفع وهو يتشبه سيرة تنعمه بالملك وترتيب قوانينه وتنظيم مراتب رجاله وتقدير ابيه واطهار زينتة بملوك المسلمين .

وملكه عظيم جداً وله الاطباء والمتجمعون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم . ومن عجيب شأنه انه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته الحمد لله حق حمده وكانت علامة ابيه الحمد لله شكراً لانعمه . وجواريه وحظاياها في قصره مسلمات كلهن . وذكر لنا ان الانرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة بعيدا الجواري المسلمات .

وذكر مدينة شيفلور فقال هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة الاشجار والاعناب مرتبة الاسواق يسكنها طائفة من المسلمين وذكر مدينة ثرمة فقال هي احسن وضعا من التي تقدم ذكرها وهي حصينة تركب البحر وتشرف عليه والمسلمين فيها ربح كبير لم فيه مساجد وهذه المدينة من الخصب وسعة الرزق على غاية وذكر المدينة التي هي حاضرة صقلية فقال هي ام الحضارة والجامعة بين الحسين غضارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر وموارد عيش اخضر عتيقة انيقة مشرقة موفقة تطلع بمرأى فنان وتخيّل بين ساحات وبساتين كلها بستان فيسحة السكك والشوارع تروق الابصار بحسن موضعها البارح تجية الشأن قرطبية البنيان قد زخرت فيها للملكها دنياه تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في غور الكواكب وتقلب في بساتينها وميادنها بين زهرة ولاعب فكم له فيها لاعمرت من مقاصر ومصانع ومناظر ومطالع وكناش قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها وديارات قد زخرف بفيانها والمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الاسلام يعمرهم اكثر مساجدهم ويقومون الصلاة باذان

مسموع ولم ارباض قد انفرادوا بها باسمائهم وبسكنائهم ولم فيها قاض وجامع يجتمعون
 للصلاة فيه ويحتفلون في وقوده واما المساجد فكثيرة لا تحصى واكثرها محاذر لمعلمي
 القرآن واطيب في شهبها بمدينة قرطبة . وذكر مدينة طرابنش واطيب في ذكر الجميع
 بما لامرغ في اطالته اذ يجير التفجع وبشير التوجع اعادها الله دار ايمان بتدريته اهـ
 وذكر من ولي على هذه الجزيرة من الملوك الى ان تغلب عليها الروم واستولى عليها رجاء
 ملك النصارى في زمن المرابطين على عهد الاموي المستعلي من ملوك الشيعة بمصر
 عندما استولت الروم على بيت المقدس والجزائر اوقبل ذلك يدبر وتداول هذه الجزيرة
 امرء الى ان انقطع عنهم امداد المسلمين لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفن فكان
 استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين واربعائة وذكر الموائف من خرج من هذه
 الجزيرة من المحدثين والعلماء والفقهاء والشعراء والكتّاب مثل ابن حمديس الصقلي
 قدم على المعتد بن عباد عند الجلاء لحادثتها فكان اثيراً لديه وهو القاتل بما الم فيه
 بذكر صقلية

قضت للصبأ النفس اوطارها	وابلغها الشيب إنذارها
نعم واجالت قداح الهوى	عليها فقسمن اعشارها
وما غرس الدهر في تربة	غراساً ولم يحين اثمارها
فانبت في الحرب آلائها	واعدوت للسلم اوزارها
كميتاً لها مرح بالفتى	اذا حث بالهوى ادوارها
تناولها الكوب من دنيا	فتجسبه كانت مضارها
وساقية زررت كفهها	على عنق الظبي ازوارها
تدير ياقوتة درة	فتغمس في مائها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم	ككرام الفجار احرارها
يدبرون راحتيض الكؤوس	على ظلم الليل اتوارها
كان لها من نسيم الحباب	شباكاً تعقل طيارها
وراهبة اغلقت دبرها	فكننا مع الليل زوارها
حدانا اليها شذا قهوة	تذيع لانفك اسرارها
فما فاز بالسك الا فتى	يتم دارين او دارها
كان نواجذ عندها	دنان مضمرة قارها

طرحت بميزانها درهمي فسيل في الكاس ديارها
 خطبنا بنات لها اربعاً ليفترع اللهو ابكارها
 من اللآء اعصار زهر النجوم تكاد تطاول اعمارها
 تريك عرائسها ابدياً طويلاً نصالح اخصارها
 تفرس في شمسها طيبها مجيد الفراسة واختارها
 فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وعصارها
 بعد لما شئت من قهوة سنيها وبعرف خمارها
 وعدنا الى حالة اطلعت على قصب البان اثمارها
 يرى ملك الله وفيها الهموم ثور فيقتل ثوارها
 وقد سكنت حركات الالهي قيات تحرك اوتارها
 فبذبي تعانق عوداً لها وتلك ثقبيل مزمارها
 ورافصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
 وقصب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
 كأن لها عمداً صففت وقد وزن العدل اقطارها
 تقل الدياجي على هامها فتتهك بالنور استارها
 كأننا نسلط آجالها عليها فتصحق اعمارها
 ذكرت صقلية والامى بهيج للنفس تذكارها
 فان كنت اخرجت من جنة فاني احدث اخبارها
 ولولا ملوحة ماء البكا حسبت دموعي انهارها
 فصحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين اوزارها
 فلا تعظمن عليك الذنوب اذا كان ربك غفارها

وقد اجاد الناشر في التعليق على الرسالة بعض ما فات المؤلف من رجال صقلية
 او هاجروا منها الى افريقية وذكر اناساً منهم فشكره على تحفته

درس التاريخ الاسلامي

تأليف الشيخ محي الدين الخطياط . القسم الثاني طبع على نفقة المكتبة الاهلية في
 المطبعة العصرية بيروت ص ٨٧

اجاد مؤلف هذا التاريخ بتسهيل مطالبه وتيسيق عباراته بحيث يتناوله التلميذ على

يسروجه بعبارة لطيفة وهذا الجزء يشتمل على تاريخ دولة الخلفاء الراشدين وماحدث من الاحداث الاولى في الاسلام . وكنا نود لو صحت عن يمين المؤلف على شكل مواضع الاشكال من عباراته حتى نقوى ملكة الفصيح او التلاوة العربية في التليذ وان يعلق شرحاً خفيفاً في الهامش على بعض الاعلام ولا سيما الجغرافية فيكون التليذ على بصيرة من مواقع البلاد التي تعرض له ويجتمع له منها مجموعة معجم صغير للبلدان التي فتحت للصدر الاول . وذلك مثل الجالية والبناء و بصرى والعربية واليرموك وقيسارية وعمواس وسبطية والرها و برقة والقادسية وجبلولاء والاهواز وقرقيسيا والجزيرة وكذلك بعض اعلام فارسية مثل مكران و طخارستان و ماسبذان وايورد وطوس فان التليذ لا يقتضيه ان نقول له مكران من بلاد فارس خصوصاً وان كثيراً من اسماء هذه البلاد قد تغير الآن عن اصله اودثرت برمتها . ثم انا لاحظنا ايجازاً في العبارات كاد يكون مخلاً في بعض المحال مثل افتضاب الجملة التي قالها هرقل لما سار من الشام الى القسطنطينية بائساً والثفت الى الشام وقال : « السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده » وقد كتب التاريخ انه قال هكذا : « السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومي ابدأ الا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم وياليته لا يولد فما احلى فعله وامر فنته على الروم »

المهاجر السوري

تأليف جميل افندي بطرس حلوة طبع في مطبعة جريدة الهدى اليومية في

نيو يورك ص ١٥٤

من انفع الكتب الاجتماعية والاقتصادية التي نشرت بالعربية هذه الآونة هذا الكتاب الذي وضعه مؤلفه من مهاجرة السوريين في اميركا الشمالية لفائدة المهاجر السوري الى ارض خريستوف كولبس فقد بحث بحثاً مستوفياً فيما ينبغي للمهاجر عمله حتى يتجح بدأه بلحة من تاريخ مهاجرة السوريين ونشوتها ومؤسسيها وعدد السوريين في الولايات المتحدة واعمالهم وقد قال في ذلك ان الاحوال قد تحولت والشؤون تبدلت واميركا اليوم غير ما كانت عليه منذ خمس عشرة سنة وذلك ليكون المتخلفون في الوطن على بصيرة وانتباه ولا سيما ان السياسة قد بشرت بالترقي والتحسن والحرية بالقوى والتمكن وسورية غنية بمناجمها وآكامها وريائها ومائها وهوائها ولا ينقصها الا بذل الاموال عليها وتوجيه العزائم اليها حتى يفيض منها الابن والعسل .

وذكر ان الهجرة لا ترجع الى ابعدهم من خمسين عاماً كان الباعث عليها اختلال المجاري

الاقتصادية في السلطنة العثمانية . وقد انكرنا عليه قوله ان الصواعق في عهد الحكومة الحميدية كانت تنفع على رؤوس نصارى الشرق دون سواهم وعلى فلولهم يعيش الجاسوس والمنافق لما ثبت لدى العارفين ان المسيحيين ان لم يكونوا سواء واخوانهم المسلمين في المعاملة فقد كانت حقوقهم مرعية اكثر وقولنا هذا في مسيحي سورية لاني غيرها خصوصاً وان اكثر المهاجرين من لبنان ولبنان باستقلال ادارته كان اكثر دعة من غيره من الولايات

وقال انه هاجر الى الولايات المتحدة فقط من سنة ١٩٠٥ الى ١٩٠٨ خمسة آلاف نسمة وكما نجح افراد زادت الهجرة وفي الولايات المتحدة من السوريين الآن عدد يبلغ الثلاثة الف اذا حسبنا تكاثرهم على سبيل التوالد وقد تكلم المؤلف بحرية فقال ان البعض من المتحولين على تقدير انهم في بلاد غربية وعلى زعم ان لارقابة عليهم ولا معاينة خلعوا عنهم تبعة الاستقامة والصدق والامانة جارين بذلك على انفسهم نقمة الوطنيين ولعنة المواطنين واجاد في كلامه على المرأة السورية المهاجرة و اشار الى ما تعرض له من الهوان وثلم الشرف بالتجارها و اشار بان تعني من هذه المذلة فالمال لا يكون سريفاً تحصيله من هذه السبل وعقد فصولا كثيرة في المهاجرة والدولة والمهاجرة ومقتضياتها واستئصال النخاسة وحماية العمال واخطار الاصفر وتفریق المهاجرين في الولايات عوضاً عن تجمعهم وضريبة الدخول على النفوس والفتنص ومرافقة الحكومة وما ينبغي للمهاجر ان يكون له من المال ويكون عليه من الصحة والهدام . وتكلم على عمران الولايات المتحدة واجاد فقال بكفي ان يقال عن مساحة الولايات المتحدة ان ولاية تكسس فقط منها تسع انكلترا وجرمانيا وفرنسا وايطاليا بمجموعات ! واورد دستور الولايات المتحدة وحقوق الرعية فيها ورئاسة جمهوريتها وتذاكر القنص بالجنسية الاميركية وغير ذلك من القوانين النافعة لتصور حالة تلك البلاد وهو ما ينفع المهاجرين وغيرهم فشكر المؤلف لشفته التي نفع بها ابناء وطنه

كتب متفرقة

نقد النصائح الكافية — تأليف الشيخ جمال الدين القاسمي وفيه تعديل معاوية وقبول مرويه وسروي الصحابة الذي كانوا معه وبيان الاعتدال والانصاف كما هو مذهب الائمة وفلاسفة الاسلام وهو في ٤٤ صفحة طبع في مطبعة الفيحاء بدمشق ومن احسن

ماراقتا فيه الفصل المعنون ببيان ان كتب الحديث مشتركة بين الامة يرويها الشيعي عن السني وبالعكس وان عادة السلف الرواية عن المخالفين في المذهب وان كتب الحديث هي ايمانية محمدية لاشافعية ولا غيرها والكتاب جيد كسائر ماخطته براءة الاستاذ الاخلاق — هو كتاب عربي عن الانكليزية محمد افندي الصادق حسين صدر الجزآن الاولان منه ومؤلفه سموئيل سميلز من مشاهير الانكليز ويطلب من مكاتب القاهرة الصحة من السعادة — تأليف الطيب مصطفى السعادة صدر الجزء الاول منه في ١٦٦ صفحة وفيه كثير من القوانين الصحية والتدابير الاهلية يطلب من مؤلفه في بيروت

ديوان الانشاء — هو مختصر في المراسلات العصرية تأليف محمد عمر افندي نجما في بيروت في ٢٢٤ صفحة وفيه كثير من الفوائد والرسائل التجارية يطلب من مؤلفه ومن مكاتب بيروت

الاسلام حافظ الدم في ما بين الامم — تأليف عبد الوهاب افندي سليم التنير من افاضل بيروت وفيه رد على بعض قس البراستانت الذين تناولوا الاسلام بما حط من شأنه آخذاً من كتب الافرنج ومنشوراتهم وتوار يختم غير مغفل ماورد في الاسلام نفسه وهو في ٤١ صفحة

الدرر — اعادت المطبعة الادبية في بيروت طبع «الدرر» لاديب بك اسحق من كتاب الطبقة الاولى من الصحافيين في القرن الماضي وفيه مقالاته وقصصه وخطبه وآثاره ومراثيه وكل مايتعلق بذلك وهو من جمع شقيقه عوني افندي اسحق وقد وقع في ٦١٦ صفحة

مجلتان جديدتان

مجلة الاقتصاد — هي زراعية صناعية تجارية مصورة لمنشئها انيبال افندي ايبلا تصدر في بيروت مرتين في الشهر في ٣٢ صفحة وقيمة اشتراكها في العام خمسة بشالك ماعدا اجرة البريد وفيها عدة مقالات نافعة منها مقالة في بلجيكا واقتصادياتها جاء فيها ان مساحة انكلترا ٣١٥ الف كيلومتر مربع وسكانها ٤٠ مليوناً ومعدل السكان في كل كيلومتر ١٢٦ والديون العمومية ١٧ ملياراً والتجارة ١٧ ملياراً وطول سككها الحديدية ٣٥ الف كيلومتر ومساحة البلجيكيك ٢٩٤٤٥٠ وسكانها ٧ ملايين ومعدل سكانها ٢٢٤ وديونها ٢٤٠ مليار وتجاريتها ٣٠ مليار وطول سككها ٤٥٠٠ ومساحة النمسا والمجر ٦٢٥

الف كيلومتر وسكانها ٤٤ مليوناً ومعدل الساكن في كل كيلومتر ٦٩ وديونها ١٦ ملياراً وتجاريتها ٤٤ مليون وسككها ٣٥ الف كيلومتر ومساحة المانيا ٥٤٠ الف كيلومتر مربع وسكانها ٥٣ مليوناً ومعدل الساكن في كل كيلومتر ٩٧ وديونها ١٦ ملياراً وتجاريتها ١٠٤ وسككها الحديدية ٤٩ الف كيلومتر ومساحة روسيا ٥٥٤٣٠٠٠٠ وسكانها ١٠٦ ملايين ومعدل السكان ١٩ وديونها ١٦ ملياراً وتجاريتها ٤ مليارات وطول سككها ٤٠ الف كيلومتر ومساحة ايطاليا ٢٩٠ الف كيلومتر وسكانها ٣٢ مليوناً ومعدل سكانها في كل كيلومتر ١٠٩ وتجاريتها ٣ مليارات وسككها ١٦ الف كيلومتر ومساحة فرنسا ٥٣٦ الف كيلومتر وسكانها ٣٨ ومعدل السكان ٧٢ ساكناً في كل كيلومتر وديونها ٣٥ ملياراً وتجاريتها ٧٠ وسككها الحديدية ٤٢ الف كيلومتر اما البلاد العثمانية فمساحتها ٤ ملايين كيلومتر مربع وسكانها ٣٨ مليوناً ومعدل السكان في كل كيلومتر ١٠ اشخاص وديونها ٥ مليارات وتجاريتها ١٠ مليار وسككها الحديدية ٥٠٠٠ كيلومتر بما فيه طريق الحجاز

العالم الجديد — مجلة شهرية تصدر بالبرية في نيويورك وتبحث في شؤون اجتماعية واقتصادية ولغوية وفكاهية وتاريخية اطلعنا على العدد السابع والثامن منها فرأيناها حافلين بالموضوعات والمباحث النافعة لمنشئها سلوم افندي مكرزل وقيمة اشتراكها دولاران ونصف وهي في عشرين صفحة كبيرة

سیر العلم والاجتماع

مدارس الصحافة

حاول الغربيون ان يعلموا فن الصحافة في المدارس فانشئت في باريس سنة ١٨٩٩ مدرسة للصحافة فلم تلبث ان اصبحت منتدى تقرأ فيه محاضرات ومسامرات وخطب في موضوعات لها علاقة بالصحافة . وفي ليل قام اوجين تافرنيه سنة ١٨٩٦ فالتقى عدة محاضرات في وظائف الصحافي وفي لندن انشأ ويليام روث مدرسة للصحافة يدرس فيها علاوة على كيفية كتابة المقالات اصول طبع الجريدة وفي اميركا ولا سيما في الولايات المتحدة انشؤا عدة صفوف في المدارس الكلية لتعليم الصحافة ولا سيما في فيلادلفيا

وشيكافو واضاقوا في ولاية كنساس الى دروس التحرير والانشاء درساً في كيفية جلب الاخبار وامتازت سويسرا والمانيا في هذا الشأن فاشتركت برن وزورنخ وجنيف وهایدلبرغ وبرلين في تعليم فن الصحافة . قالت احدى المجلات الانجليزية بعد ايراد ما تقدم : وبالت شعري هل اثمرت هذه الاعمال ما كان يتوقع منها وهل دخل الاصلاح في الصحافة من هذا التعليم ؟ فالجواب بالاجاب صعب . فينبغي للصحافي مع ما يجب لصناعته من المعارف الفنية كفاً آت منوعة ومزايا طبيعية وصفات في الثبات والارادة ويصعب تعليمه هذه المهنة بدونها مهما اجلسناه على دكات المدارس على انه لا ينكر ان التعليم العالي يجب ان يعنى بعد الآن بالمسائل المهمة التي تخوض الصحافة عباها وان مدارس الصحافة التي هي متممة للدروس العالية تخدم خادمة في هذا الشأن

الساحات للصحة

قال الفيلسوف جان جاك روسو ان نفس الانسان مضر بالناس . ولكن هذه القاعدة لم تطبق في المدن ولذلك كثرت فيها الامراض فقد تبين بالاستقراء ان المدن التي تكون ساحاتها العامة أكثر والهواء والشمس يتخللها تنقل فيها الوفيات بالسل وان في لندن يقل عدد الموتى بالسل الى ثلث عدد من يهلكون به في باريز لان ساحات لندن اكبر من ساحات باريز بثلاث مرات تصرف عليها الملايين لاعتقادها النفع منها للناس . قلنا فابن ساحاتنا في المدن الكبرى وحدائق النزهة .

مكتاب الشعب

قدم قيم مكتبة مدينة بلغاريا الروسية الى مؤتمر الكتب والمستندات في بروكسل تقريراً في خزائن كتب الشعب في بلغاريا فقال انه يعضدها جمعيات مؤلفة اعضاؤها من ارباب الحرف المختلفة فلكل مكتبة محل فيه خزانة الكتب وغرفة المطالعة التي تعرض فيها المجلات والجرائد السياسية والمصورة . وقال ان مدينة بلغاريا كانت فيها سنة ١٨٨٨ - ٨٠ مجلداً فاصبح فيها الآن ١١١ الفا وانه عول ان يجري على طريقة مجمع الكتب الدولي الذي عقد في بروكسل وهران نصف الكتب بحسب موادها وتجعل لها فهراس بذلك

يابان الاقتصادية

نشرت اليابان احصاء بالحال الاقتصادية في بلادها خلال سنة ١٩١٠ فبلغت مساحتها السطحية ٤٤٨٢٤٣ كيلومتراً مربعاً يدخل في ذلك جزائر فرموز وبسكادور وحتالين

وكان سكانها سنة ١٩٠٩ — ٥٣,٢٧٤,٩٨٠ منهم ٥١,١٦٩,٥٨١ في البلاد الاصلية وقد زاد السكان منذ سنة ١٨٩١ عشرة ملايين فيكون بذلك ١٣٣ ساكنًا في كل كيلومتر مربع . وقد نظمت يابان ماليتها بعد الحرب الروسية اليابانية وسنت قواعد في الميزانية مملوءة بالحكمة وحددت الخرج والدخل السنوي بحيث تنحصر في قروض جديدة وان تسارع الى وفاء ما عليها من الديون فلا تقبل الى ان تطلب اموالاً جديدة بل قلت ما يمكن ما كانت وضعته من الاعتمادات لبعض المشاريع وارجأت دفع النفقات اللازمة لبعض الاعمال العامة وضربت لها مددًا مثبوتًا تخفف السنة بعد السنة

وعزمت هذه الحكومة ان تدفع كل سنة خمسين مليون يان او ١٢٩,١٥٠,٠٠٠ فرنك كل سنة لوفاء الديون العمومية وازمعت ان تزيد هذا التقدر حتى تستهلك جميع الديون التي عليها ومع كل هذا فهي تزيد في ميزانيتها العادية وميزانيتها فوق العادة فكانت هذه السنة ٤٠٢,٨٦٠,٠٠٠ يان للاولى و١١٤,٦١٩,٩٧٨ يانًا للثانية واهم النفقات التي زادوا فيها مخصصات الامبراطور وزيادة رواتب الموظفين والضباط والتوسعة على الجند واكثر النفقات فوق العادة بذلت في استهلاك دين الامبراطورية . وبداعي النظام الجديد في الجباية نزلت الضرائب على المقارات والسكر احد عشر مليون ونصف مليون يان وزادت من جهة اخرى وارادت الحكومة العادية بتجسّن بعض الضرائب الاخرى وحاصلات الطوابع والبريد واحتكار الملح والكافور والتبغ . وقلت النفقات الغير العادية مليونين ونصف مليون يان . هذا وقد كانت الميزانية منذ خمس سنين ٢٧٧ مليون يان فارتفعت على حين نجاهة ابان الحرب الروسية اليابانية الى ٤٢٠ مليونًا

وبلغت تجارة يابان الخارجية سنة ١٩٠٩ — ٨٠٧,٣١١,٣٥٤ يانًا منها ٤١٣,١٣٠,٠٠٠ من الصادرات و٣٩٤,١٩٩,٠٠٠ في الواردات واكثر صلات يابان التجارية مع الصين والولايات المتحدة ثم تحمي فرنسا فللمانيا فالتكترا . وطول خطوطها الحديدية ٥٠٢٠ ميلًا منها ٤٥٤٢ ملك الحكومة و٤٧٧ تستثمرها شركات كلفت ٥٣٥ مليون يان ومع ان معدل دخل سكك الحكومة اكثر من دخل سكك الشركات فالحكومة تريد ان تجعل محاسبة خطوطها على صورة تجارية

فوائد التالفون

نشر احد الالمانيين كتابًا في الفوائد التي نجمت في التجارة من التالفون جاء فيه

ان ما انفقته ألمانيا الى آخر سنة ١٩٠٤ ١٥٣٠٠ مليون مارك لانشاء السكك الحديدية و ٢٦٤ مليون مارك لانشاء الاسلاك التلفونية . وكانت الولايات المتحدة انفقت الى سنة ١٩٠٢ — ١٨٢٣ مليون مارك وان النظام الاقتصادي الحديث قائم اليوم على اساس نقل الاخبار بسرعة ففي الاسلاك التلفونية مبادلة للمفاوضات الشفاهية في بقعة واسعة من الارض ولا تزال المسافات بين الاسلاك تبعد كلما كمل الفن وتم العلم والتلفون افضل من التلغراف ولكنه لا يقوم مقامه واستعمال التلفون يستلزم اقتصاداً عظيماً في الوقت وبه سهل تكاثر الصلات التجارية وكان يتمدّد بدونها ودامها وساعد على اعتدال الاسعار وتحكم التجار فيها والتلفون اداة نافعة في تقسيم العمل وتوزيعه فالواجب تنزيل اسعاره حتى يشترك في منافعه الفقير والغني على السواء

النجاح الألماني

كان من نتيجة آخر احصاء قامت به ألمانيا منذ ثلاث سنين ان كان عدد سكان ألمانيا ٦٣٥٠٣٦٠٠٠ اخذت افادات كافية عن ٦١٥٧٢١٥٠٠ ساكن وقد صرفت ألمانيا على هذا الاحصاء الاخير وحدودها ستة ملايين مارك فكان عدد الاشخاص العاملين في الصناعات الرئيسة ومنهم الخدمة ومن لاموطن لهم والاشخاص المستقلون بلا عمل ٣٠٠٠ مليون وفي ألمانيا ٢٦٣ مليون ارباب الاملاك وموظفين فاذا حذف عدد الاشخاص المستقلين وهم بلا صناعة تجد عدد العاملين ٢٦٥٨ مليون اي زهاء ٤٣ في المئة من مجموع السكان وكان سنة ١٨٨٢ ١٧ في المئة فقط . ونقسم هذه الصناعات والحرف الى ثلاثة اقسام رئيسة وهي الزراعة ويدخل فيها البستنة وتربية المواشي والغابات والصيد . والصناعات الصغرى والكبرى والتجارة والنقل وقد زاد عدد العاملين في كل فرع من فروعها وقل عدد المشتغلين بالزراعة على نسبة معتدلة فكان عدد العاملين في الزراعة سنة ١٩٠٧ ٣٢ مليوناً على حين بلغ عدد هذا العدد ٤٣ مليوناً سنة ١٨٨٢ وبلغ عدد من يشعاطون الزراعة مباشرة في سنة ١٩٠٧ — ١٧ مليوناً وعدد المشتغلين بالصناعات ١١ مليوناً وزاد عدد السكان سنة ١٨٩٥ الى ١٩٠٧ نحو عشرة ملايين النهمت الصناعة منهم ثلاثة اقسامهم وربعمهم انصرف الى التجارة والنقل وهكذا كان بحسب الاحصاء الاخير ٣٥٥٠١٤٠٠٠ شخص من مديري الزراعات و ٧٤٢٨٣٤٠٠٠ من العملة و ٩٩٤٠٠٠ من المستخدمين و ١٠٩٧٧٤٠٠٠ مدير في الصناعة و ٦٨٦٤٠٠٠ مستخدم و ٨٥٩٣٤٠٠٠ عامل و ١٤٠١٢٤٠٠٠ مدير في التجارة و ٥٠٠٠٠٠٠ مستخدم

و ١٠٠٠٠٠٠٠ عامل ٠ وزاد عدد الاختصاص العاملين بأكثر سرعة من عدد العامل
وكثير انضمام العامل بعضها الى بعض واحتفظت الزراعة بالقسم اللازم لها من السكان
ونبتت الآخر للعمل في التجارة والصناعة

مطالعات

قال ابو العلاء المعري واجاد ماشاء :

مثل الفقى عند التفرّب والنوى مثل الشرارة ان تفارق نارها
ان صادفت ارضا ارتك خمودها او وافقت اكلاً ارتك منارها
وقال الآخر وقد ابدع :

وكم قائل مالي رأيتك راجلاً فقلت له من اجل انك فارس
وقال البحري ولم يبق مجالاً لقائل :

الجاهلان اثنان من دون الوري فانطن أخى وان هما لم يفظنا
من قال ما بالناس عني من غنى من جهله اوقال بي عنهم غنى

فضائل الهند ثلاثة وضع كتاب كيلة ودمنة المشهور والشرنج والارقام التسعة الهندية
قال يونس النحوي : الايدي ثلاث يد بيضاء ويد خضراء ويد سوداء فاليد
البيضاء هي الابتداء بالمعروف واليد الخضراء هي المكافاة على المعروف واليد السوداء
هي اللن بالمعروف

كتب رجل من العلماء الى يزيد بن حاتم يستوصله فبعث اليه ثلاثين الف درهم
وكتب اليه (اما بعد فقد بعثت اليك بثلاثين الفاً لاً أكثرها امتناناً ولا أقلها تجبراً
ولا استتيك عليها ثناء ولا اقطع لك بها رجاء والسلام)

عيسى اسكندر المعلوف

احصاء الحيوانات

قدم الاستاذ سيبلي الى مجمع ترقية العلوم البريطانية احصاء في انواع الحيوانات قال
فيه لقد كثرت منذ نحو نصف قرن الحيوانات ذوات الثديين كثرة زائدة فبعد ان
كانت ١٢٠٠ نوع اصحيت ٢٣٠٠ وبعد ان كانت اجناس الطيور ٣٦٠٠ ارتفعت الى
١١٠٠٠ وكان عدد الدبابات ٣٤٣ فصارت ٣٤٠٠ وعدد الاسماك ٣٥٠٠ فاصحيت
١١٠٠٠ والحيوانات التي لا فقار لها كذات الصدف ١١٠٠٠ فعد منها ٣٣٠٠٠ والحيوانات
ذوات القشر من ١٢٩٠ الى ٧٥٠٠ والعناكب من ١٠٤٨ الى ٣٠٧٠ والهوام من ٤٩١٠

الى ٢٢٠٤١٥٠ وأجراد البحر ونجومها من ٢٣٠ الى ١٨٠٤٣ والدبدان من ٣٧٢ الى ٦٠٧٠ وكان مجموع الانواع المعروفة سنة ١٨٤٠—٧٣٤٥٨٨ فأصبحت سنة ١٨٨١ ٣١١٦٥٣ ومازالت في ازدياد سنة عن سنة

انكثرا والاقتصاديات

نشرت الحكومة الانكليزية احصاءاً مهماً في الوفيات والولادات قالت فيه ان عدد الوفيات سنة ١٩٠٨ كان ١٥ في الالف في انكلترا و ١٦ في الالف في البلجيك و ١٨ في بروسيا و ٢٠ في فرنسا و ان من يموتون من الاطفال في روسيا فاحش جداً فقد بلغ ٢٦٨ في الالف وقد تبين من هذا الاحصاء نجاح انكلترا كثيراً في الامور الاجتماعية منذ خمسين سنة وقلة المواليد فيها فقد كان معدل الولادات فيها سنة ١٨٥٠ - ٣٣ في الالف فنزل سنة ١٩٠٥ - الى ٢٧ في الالف وان الفقراء يكثرون عن ذي قبل وكذلك يكثر ايداع الناس اموالهم في صناديق التوفير وتوسع دور العملة بفضل المجالس البلدية وتقل الامراض المعدية وتزبد مسالة الانفراج بين غلاء المعيشة والمياومات وان ما يشغل بال انكلترا هو في الحقيقة مسألة العطلة الاسبوعية

في اميركا انشئت اول جمعية لحماية الاولاد سنة ١٨٧٦ وفيها اليوم ٣٥٠ جمعية تتوخى هذا الغرض واهم هذه الجمعيات هي في مدينة نيويورك في بنات عظيمة ذات ثماني طبقات خدمت الانسانية خدمة تذكر فمساعدتها ابطال اكراه الاولاد على الشحاذة او بيع الزهر في الليل ومنع الموسيقيون السياريون والباعة وغيرهم ان يستخدموا صغار الاطفال فاذا وصل اليها طفل تفحصه شخصاً طيباً فان رأته فيه تشويقاً في بعض اجزاء جسمه تختار له عملاً يوافق مزاجه وبذلك انتقلت منذ تاريخ تأسيسها ١٦٠٠٩٧٧ طفلاً الى الهواء الطلق

وضع احد علماء كونهن اغن عاصمة الدانيرك طريقة جديدة في الاستشفاء فارتأى ان يسير المرء مكشوف الرأس حافي القدمين ويتجرد ابداً من الثياب فلا يكثر منها اذا امكن وبنام بدون قميص وبفضل السير راجلاً على ركوب المركبات والتزاموايات والفراجات وقد اخترع نوع من الثقباب ليلبس في الارجل بدل الاحذية المتعارفة حتى يشغل الهواء الرجل على نحو الطريقة التي اخترعها الخوري كنيب في استعمال

للاستشفاء بالماء البارد . اما الجوارب فقد حنط لبسها في الارجل قال ولا بأس بوضع قماش مسرد على الساقين وقال ان النزلة الصدرية كادت تسطو عليه منذ بضع سنين فرأى ان يداوئها في الحال بالمشي السريع فتصبب جسمه عرقاً ونجماً من الاصابة بها . وقد احدثت هذه الطريقة الجديدة في الصحة اخذاً ورداً بين الباحثين والعالمين في الغرب فكأن واضعها يريد ان يعود بالانسان الى العيش الطبيعي

الخط المائل والمستقيم

اتفق جمهور من الاطباء في جلسة لم في باريز على ان الخط المستقيم لا يتأق معه للولد ان يجلس جلسة طبيعية بسبب الثقل الدائم في يده اليمنى فان حركة ذراعه تحدث تعباً في الاعصاب فيكون هذا الخط متعباً جداً وبطيئاً جداً وتنتج عنه اخطار للولاد المستعدين لتسوية الجسم والكرزاز (الشج) الذي يصيب الكتاب اما الخط المائل فانه يكتب على صورة اسهل من المستقيم ولذلك يقل اتعابه للولد وتكون به جلسته اكثر انضباطاً وهذه الطريقة هي التي يفضل تعليمها في المدارس وان الخط المستقيم لا يحول دون حسر البصر كالخط المائل او المنحني

نصائح للمعلمين والمتعلمين

كتب احد المثنفين بتريه العقول يقول ان التربية المدرسية يجب ان لا تختلف عن التربية البيتية فيفرض على التلامذة ان يعموا باسباب الحشمة والحرية والارادة والنظر والتعقل وهكذا يتعلمون مايجب بانفسهم ولا تنفسهم قال وياك ايها التلميذ ان تحاول الرجم بالغيب فالتكبر هو صورة من صور الكذب . والتفت الكتاب الى الاسانذة فنصح لم ان يحترموا شخصية تلامذتهم كل الاحترام وان يدركوا معنى التبعة التي تنوء عليهم ويقولوا في انفسهم ان المدرسة اذا لم تسر سيراً حسناً فذلك ناشئة من المعلمين لا المتعلمين فعلى الاستاذ ان يحذر الغفلة والتوسع في الرحمة كالتوسع في الشدة وان تكون مطالبهم من المتعلمين بحسب سنهم فيجب ان لا يخافهم التلميذ ولكن لا يبعضهم وان تكون تربيتهم استقلالية لا اتكالية اي لا كحالة الموظف مع سيده . وهنا وجه كلامه الى المديرين فقال عليكم ان لانسوا ان الواجب ان يعامل الناس باكثر مما يستحقون

